التنبؤ بالغيب

يواصل نبي اللّه يوسف عليه السلام حديثه مع الساقي فيقول: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾[١] [يوسف: ٤٩]. هذا خارج الرؤيا لأن الرؤيا: ﴿سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾ [يوسف: ٤٦]. انتهت الرؤيا عند السنة السابعة من السنوات الشداد[٢].

---

(١) قال ابن كثير: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ﴾ يعني: يأتيهم الغيث والخصب والرفاهية، ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ يعني: ما كانوا يعصرونه من الأقضاب والأعناب والزيتون والسمسم وغيرها.

فعبر لهم وعلى الخير دلهم. وأرشدهم إلى ما يعتمدونه في حالتي خصبهم وجدبهم، وما يفعلونه من ادّخار حبوب سني الخصب في السبع الأول في سنبله، إلا ما يرصد بسبب الأكل، ومن تقليل البذر في سني الجدب في السبع الثانية، إذ الغالب على الظن أنه لا يرد البذر من الحقل، وهذا يدل على كمال العلم وكمال الرأي والفهم.

قصص الأنبياء [٢٨٥]

قال فخر الدين الرازي: قال المفسرون: السبعة المتقدمة سنو الخصب وكثرة النعم، والسبعة الثانية سنو القحط والقلة وهي معلومة من الرؤيا، وأما حال هذه السنة فما حصل في ذلك المنام شيء يدل عليه؛ بل حصل ذلك من الوحي، فكأنه عليه السلام ذكر أنه يحصل بعد السبعة المخصبة والسبعة المجدبة سنة مباركة كثيرة الخير والنعم، وعن قتادة: زاده اللّه علم سنة.

التفسير الكبير [١٨/ ١٥٠]

(٢) قال الزمخشري: فإن قلت: معلوم أن السنين المجدبة إذا انتهت كان انتهاؤها بالخصب، وإلا لم توصف بالانتهاء، فلِمَ قلت: إن علم ذلك من جهة الوحي؟ قلت: ذلك معلوم علماً مطلقاً لا مفصلاً، وقوله: ﴿فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ تفصيل لحال العام، وذلك لا يعلم إلا بالوحي.

الكشاف [٢/ ٢٦٠]

قال القرطبي: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ﴾ هذا خبر من يوسف عليه السلام عما لم يكن في رؤيا الملك، ولكنه من علم الغيب الذي آتاه اللّه. =

openkandil.com

قوله: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ﴾ أي يعانون معاناة شديدة، لأن أَغَثَ فلاناً أي أغثه[1]، والغيث ينزل لينقذ الناس من الجدب؛ يغاث الناس أي لا يحصلون إلا على قوتهم الضروري.

ومعنى قوله تعالى: ﴿يَعْصِرُونَ . . .﴾[2] أنت لا تعصر شيئاً إلا إذا احتجت إلى كل قطرة منه.. فإذا كان عندك تمر مثلاً أكلت منه.. ثم قلت اعملوا جزءاً عجوة وجزءاً آخر جففوه؛ هذا دليل على أن عندك فائضاً: ولكن إذا جئت لهذا التمر، وأخذت منه تمرة تمرة، وقلت: خذوا منه على قدر حاجتكم فقط، فكأنك لا تملك منه الكثير؛ ولذلك تأخذه قطرة قطرة كأنك تعصره. وهذه نبوءة من يوسف نبأه الله تعالى بها.

❁ ❁ ❁

= قال قتادة: زاده الله علم سنة لم يسألوه عنها؛ إظهاراً لفضله، وإعلاماً لمكانه من العلم وبمعرفته.

تفسير القرطبي [٩/ ٢٠٤، ٢٠٥]

(١) قال القرطبي: ﴿فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ﴾ من الإغاثة أو الغوث؛ غوث الرجل قال: واغوثاه، والاسم الغَوْثُ والغُوَاث والغَوَاث؛ واستغاثني فلان فأغثته، والاسم الغِياث؛ صارت الواو ياء لكسرة ما قبلها. والغيث المطر؛ وقد غاث الغيثُ الأرضَ أي أصابها؛ وغاث الله البلاد يغيثها غيثاً، وغيثت الأرضُ تغاث غيثاً، فهي أرض مغيثة ومغيوثة؛ فمعنى: ﴿يُغَاثُ النَّاسُ﴾ يُمطَرون.

تفسير القرطبي [٩/ ٢٠٥]

(٢) قال القرطبي: ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ قال ابن عباس: يعصرون الأعناب والدهن؛ ذكره البخاري وروى حجاج عن ابن جُريج قال: يعصرون العنب خمراً والسمسم دُهناً، والزيتون زيتاً.

وقيل: أراد حلب الألبان لكثرتها؛ ويدل ذلك على كثرة النبات.

وقيل: ﴿يَعْصِرُونَ﴾ أي يَنجُون؛ وهو من العُصْرة، وهي المنجاة قال أبو عبيدة: والعَصَر بالتحريك الملجأ والمنجاة، وكذلك العصرة.

قال أبو زبيد:

صادياً يستغيث غيرَ مُغاثٍ ولقد كان عصرة المنجود

والمنجود الفزع.

واعتصرت بفلان وتعصرتُ أي التجأت إليه. قال أبو الغوث: «يعصرون» يستغلون؛ وهو من عصر العنب. واعتصرت ماله أي: استخرجته من يده.

تفسير القرطبي [٩/ ٢٠٥]

obeikandl.com

معجزة
يونس عليه السلام

obeikandl.com

obeikandl.com

معجزة يونس عليه السلام

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1] [الأنبياء: ٨٧].

﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾ هو: العبد الصالح يونس بن متى، وبلدته هي قرية «نينوى»، وتوجد بالعراق ناحية الموصل.

وبدأت قصته مع قومه عندما قام يدعوهم إلى عبادة الله، فلم يؤمنوا، ولما طال ذلك عليه يئس من إيمان أهل قريته، خرج منها وهو غاضب؛ فهناك غاضب ومغاضب[2]؛ الغاضب يكون غضباناً من نفسه، ولم يغضبه أحد.. ولكن مغاضب تعني: أن الناس أغضبوه. مثلها: «هاجر» أي ترك المكان من نفسه، و«مهاجر» أجبره أهل المكان على المهاجرة.

والمغاضبة من جهتين التي يسمونها المفاعلة[3]. فعندما تقول: قاتل زيد

---

(١) قال الماوردي: ـ يعني ـ من الظالمين ـ لنفسي في الخروج من غير أن تأذن لي، ولم يكن ذلك عقوبة من الله، لأن الأنبياء لا يجوز أن يعاقبوا، وإنما كان تأديباً، وقد يُؤدب من لا يستحق العقاب كالصبيان.

النكت والعيون [٣/ ٤٦٧]

قال ابن كثير: قال أهل التفسير: بعث الله يونس عليه السلام إلى أهل «نينوى» من أرض الموصل. فدعاهم إلى الله عزّ وجلّ. فكذبوه وتمردوا في كفرهم وعنادهم، فلما طال ذلك عليه من أمرهم خرج من بين أظهرهم ووعدهم حلول العذاب بهم بعد ثلاث.

قصص الأنبياء [٣٢٧]

(٢) قال القرطبي: ﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾: قال الحسن والشعبي وسعيد بن جبير: مغاضباً لربه عزّ وجلّ. واختاره الطبري والقتبي؛ واستحسنه المهدوي؛ وروي عن ابن مسعود.
وقال النحاس: وربما أنكر هذا من لا يعرف اللغة، وهو قول صحيح.
والمعنى: مغاضباً من أجل ربه، كما تقول: غضبت لك، أي من أجلك، والمؤمن يغضب لله عزّ وجلّ إذا عُصي. وانتهكت محارمه.

تفسير القرطبي [١١/ ٣٢٩]

(٣) قال ابن الجوزي: قوله تعالى: ﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾ قال ابن قتيبة: المغاضبة: مُفاعلَة، =

عمراً.. معناها: أن عمراً قاتل زيداً أيضاً؛ أي هناك مشاركة في القتال من الطرفين.

﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾ يعني: صاحب الحوت؛ لأن اسمه اقترن بالحوت عندما ابتلعه(١).

فيونس حينما دعا قومه إلى الإيمان كفروا به؛ لأنه عندما يأتي الرسول بمنهج يصلح حركة الحياة الفاسدة، فإن المستفيدين من الفساد يقاومونه، وهم عادة الأقوياء الذين لهم جبروت، ويعيشون على ظلم الناس وأكل حقوقهم، وغير ذلك من الفساد. فلما قاوم أهل القرية يونس عليه السلام وعاندوه ترك دعوتهم مغاضباً، أي أنهم أغضبوه بعنادهم، وغضبوا منه لدعوته، فتركهم وهاجر. ورسول اللَّه ﷺ ترك مكة مهاجراً؛ لأن قومه هم الذين ألجأوه إلى الهجرة؛ ولذلك قال وهو يغادر مكة: «واللَّه إنك لأحب بلاد اللَّه إلى نفسي، ولولا أن قومك أخرجوني ما خرجت»(٢).

ذو النون خرج مغاضباً: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾(٣). والظن ترجيح؛ أي أنه

= وأكثر المفاعلة من اثنين، كالمناظرة والمجادلة والمخاصمة، وربما تكون من واحد، كقولك: سافرت، وشارفت الأمر، وهي هاهنا من هذا الباب.

زاد المسير [٥/ ٢٦٣]

(١) قال القرطبي: قوله تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾ أي: واذكر «ذا النون» وهو لقب ليونس بن متى لابتلاع النون إياه. والنون: الحوت. وفي حديث عثمان رضي اللَّه عنه أنه رأى صبياً مليحاً فقال: دسموا نونته كي لا تصيبه العين. روى ثعلب عن الأعرابي: النونة النقبة التي تكون في ذقن الصبي الصغير، ومعنى دسموا سودوا.

تفسير القرطبي [١١/ ٣٢٩]

(٢) أخرجه الحاكم عن عبد اللَّه بن عدي بن الحمراء الزهري قال: رأيت رسول اللَّه ﷺ وهو على راحلته بالحزورة يقول: «واللَّه إنك لخير أرض اللَّه، وأحب أرض اللَّه إلى اللَّه، ولولا أني أُخرجت منك ما خرجت».

هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

أخرجه الحاكم في المستدرك [٣/ ٨] وصححه، ووافقه الذهبي

(٣) قال القرطبي: قوله تعالى: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ قيل: معناه استزله إبليس، ووقع في ظنه إمكان ألا يقدر اللَّه عليه بمعاقبته. وهذا قول مردود مرغوب عنه لأنه كفر. رُوي عن سعيد بن جبير حكاه عنه المهدوي، والثعلبي عن الحسن. =

اعتقد أن اللَّه سبحانه وتعالى لن يضيق عليه، فأرض اللَّه واسعة، وظن أنه سيجد مكاناً آخر يكون أهله أكثر قبولاً للدعوة، وأقل عداوة له؛ ولكنه مرسل إلى هؤلاء، وكان لا بد أن يتحمل الأذى منهم، ولكن معارضة دعوته كانت شديدة، والتعنت كان شديداً جداً من أهل هذه القرية «نينوى»؛ والتي جاء ذكرها في حديث «عدَّاس» مع رسول اللَّه ﷺ عندما ذهب إلى الطائف يطلب النُّصرة من أهلها، فحرَّضوا عليه غلمانهم وسفهاءهم، فقذفوه بالحجارة حتى دميت قدماه الشريفتان، فدخل إلى بستان لابني ربيعة، عتبة وشيبة فرآه خادم البستان واسمه «عدَّاس»، فأتى له بقطف عنب ليأكله، وجلس يتكلم معه فأخبره عدَّاس أنه من «نينوى». قال له رسول اللَّه ﷺ: «قرية العبد الصالح». قال عدَّاس: ومنا أدراك بالعبد الصالح؟ فقال رسول اللَّه: «إنه نبي وأنا نبي»[(١)].

= وذكر الثعلبي: وقال عطاء وسعيد بن جبير وكثير من العلماء معناه: فظن أن لن نضيق عليه.

قال الحسن: هو من قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ [الرعد: ٢٦] أي: يضيق، وقوله: ﴿ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ ﴾ [الطلاق: ٧].

قلت: وهذا الأشبه بقول سعيد والحسن. وقَدَر وقُدِر وقَتَر وقُتِر بمعنى أي: ضُيق وهو قول ابن عباس فيما ذكره الماوردي والمهدوي.

وقيل: هو من القدر الذي هو القضاء والحكم؛ أي فظن أن لن نقضي عليه بالعقوبة؛ قاله قتادة ومجاهد والفراء. مأخوذ من القدر، هو الحكم دون القدرة والاستطاعة.

وروي عن أبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب، أنه قال في قول اللَّه عزّ وجلّ: ﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾: هو من التقدير ليس من القدرة، يقال منه: قدَر اللَّه لك الخير يقدره قدراً، بمعنى قدر اللَّه لك الخير، وأنشد ثعلب:

فليست عشيًا اللوى برواجع ... لنا أبداً ما أورق السلم النضرُ

ولا عائد ذاك الزمان الذي مضى ... تباركت ما تقدر يقع ولك الشكرُ

يعني ما تقدره وتقضي به يقع. وعلى هذين التأويلين العلماء.

تفسير القرطبي [١١/ ٣٣١، ٣٣٢]

(١) قال ابن إسحاق: فلما رآه - أي النبي ﷺ - ابنا ربيعة عتبة وشيبة وما لقي، تحركت له رحمتهما فدعوا غلاماً لهما نصرانياً، يقال له عدَّاس، فقالا له: خذ قطفاً من هذا العنب فضعه في هذا الطبق، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل فقل له يأكل منه، ففعل عدَّاس، ثم أقبل به حتى وضعه بين يدي رسول اللَّه ﷺ، ثم قال له: كل، فلما وضع رسول اللَّه ﷺ فيه يده قال: «باسم اللَّه»، ثم أكل، فنظر عدَّاس في وجهه ثم قال: واللَّه إن هذا=

نعود إلى قصة يونس عليه السلام: لما غادر قريته مغاضباً لأهلها ربما قاصداً بلداً آخر، يكون أكثر قبولاً لدعوته. رأى قوم يونس عواصف ورياحاً شديدة، وانقلاباً في الطبيعة، فذهبوا إلى علمائهم فقالوا لهم: إن هذا بداية عذاب سيصيبهم اللّه سبحانه وتعالى لما فعلوه في نبي اللّه يونس. وقال لهم علماؤهم: آمنوا بدعوة يونس قبل أن يحل عليكم العذاب. فآمنوا وبدءوا يردون المظالم إلى أهلها، حتى إن الرجل كان يهدم جدار بيته لأن فيه حجراً سرقه من جاره، فيهدم الجدار ويعيد لجاره الحجر[١].

وأما يونس بعد مغادرته قريته وقومه، ركب سفينة في البحر فتلاعبت بها الأمواج. فقال ركاب السفينة: لا بد من تخفيف الحمولة حتى تنجو السفينة من الغرق. وتشاوروا فيما بينهم واتفقوا على إجراء قرعة، من وقعت عليه ألقوه من السفينة في عرض البحر؛ ليتخففوا منه وأجروا القرعة، فحددت القرعة يونس عليه السلام، وأعادوها ثلاث مرات، فكانت كل مرة تحدد يونس عليه السلام،

= الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد، فقال له رسول اللّه ﷺ: «ومن أهل أي البلاد أنت يا عدّاس؟ وما دينك؟» قال: نصراني، وأنا رجل من أهلِ نينوى، فقال له رسول اللّه ﷺ: «من قرية الرجل الصالح يونس بن متى؟» فقال عداس: وما يدريك ما يونس بن متى؟ فقال رسول اللّه ﷺ «ذاك أخي، كان نبياً وأنا نبي» فأكبَّ عداس على رسول اللّه ﷺ يقبل رأسه ويديه وقدميه.

وقال: يقول ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه: أما غلامك فقد أفسده عليك، فلما جاءهما عداس قالا له: ويلك يا عداس، مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟ قال: يا سيدي ما في الأرض شيء خير من هذا، لقد أخبرني بأمر ما يعلمه إلا نبي.

قالا له: ويحك يا عداس!! لا يصرفنك عن دينك فإن دينك خير من دينه.

سيرة ابن هشام [٢/ ٣٤، ٣٥]

(١) قال ابن كثير: قال ابن مسعود ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة، وغير واحد من السلف والخلف: فلما خرج من بين ظهرانيهم، وتحققوا نزول العذاب بهم، قذف اللّه في قلوبهم التوبة والإنابة. وندموا على ما كان منهم إلى نبيهم، فلبسوا المسوح، وفرقوا بين كل بهيمة وولدها، ثم عجُوا إلى اللّه عزّ وجلّ، وصرخوا وتضرعوا إليه، وتمسكنوا لديه، وبكى الرجال والنساء والبنون والبنات والأمهات. وجأرت الأنعام والدواب والمواشي، ورغت الإبل وفصلانها، وخارت البقر وأولادها، وثغت الغنم وحملانها وكانت ساعة عظيمة هائلة.

قصص الأنبياء [٣٢٨]

فألقوه في البحر فالتقطه الحوت[١]، ثم لفظه الحوت إلى الشاطئ، وذلك قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۝ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[٢] [الصافات: ١٤٣، ١٤٤].

---

(١) قال ابن كثير: لما ذهب مغاضباً بسبب قومه، ركب سفينة في البحر فلجَّت بهم، واضطربت وماجت بهم وثقلت بما فيها، وكادوا يغرقون على ما ذكره المفسرون.
قالوا: فتشاورا فيما بينهم على أن يقترعوا، فمن وقعت عليه القرعة ألقوه من السفينة ليتخففوا منه.
فلما اقترعوا وقعت القرعة على نبي الله يونس فلم يسمحوا به، فأعادوها ثانية فوقعت عليه أيضاً، فشمر ليخلع ثيابه ويلقي بنفسه فأبوا عليه ذلك. ثم أعادوا القرعة ثالثة فوقعت عليه أيضاً، لما يريده الله به من الأمر العظيم.
قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ۝ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ۝ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الصافات: ١٣٩ ـ ١٤٢].
وذلك أنه لما وقعت عليه القرعة أُلقي في البحر، وبعث الله عزّ وجلّ حوتاً عظيماً من البحر الأخضر فالتقمه، وأمره الله تعالى أن لا يأكل له لحماً، ولا يهشم له عظماً، فليس لك برزق، فأخذه فطاف به البحار كلها. وقيل: إنه ابتلع ذلك الحوتَ حوتٌ آخر أكبر منه. قالوا: ولما استقر في جوف الحوت حَسِبَ أنه قد مات، فحرك جوارحه فتحركت، فإذا هو حي فخر لله ساجداً وقال: يا رب.. اتخذت لك مسجداً في موضع لم يعبدك أحد في مثله.

قصص الأنبياء [٣٢٩]

(٢) قال ابن كثير: قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۝ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٤٣، ١٤٤].
قيل: معناه فلولا أنه سبح الله هنالك، وقال ما قال من التهليل والتسبيح، والاعتراف لله بالخضوع، والتوبة إليه والرجوع إليه ـ للبث هنالك إلى يوم القيامة، ولبعث من جوف ذلك الحوت؛ هذا معنى ما روي عن سعيد بن جبير في إحدى الروايتين عنه.
وقيل: معناه: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ﴾ من قبل أخذ الحوت له ﴿مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾ أي: المطيعين المصلين الذاكرين الله كثيراً؛ قاله الضحاك بن قيس، وابن عباس، وأبو العالية، ووهب بن منبه، وسعيد بن جبير، والضحاك، والسدي، وعطاء بن السائب، والحسن البصري، وقتادة وغير واحد، واختاره ابن جرير.

قصص الأنبياء [٣٣١]

قال الماوردي: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾ فيه أربعة أوجه:
أحدها: من القائلين ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، قاله الحسن.
الثاني: من المصلّين، قاله ابن عباس. =

أي: الذي نجاه هو كثرة تسبيحه وذكره للّه سبحانه وتعالى... وأنبت اللّه عليه شجرة على الشاطئ لتحميه من حرارة الشمس[١].

= **الثالث**: من العابدين، قاله وهب بن منبه.
الرابع: من التائبين، قاله قطرب. وقيل: تاب في الرخاء فنجاه اللّه من البلاء.
﴿لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾: قال قتادة: إلى يوم القيامة حتى يصير الحوت له قبراً وفي مدة لبثه في بطن الحوت أربعة أقاويل:
أحدها: بعض يوم، قاله الشعبي: التقمة ضُحى ولفظه عشية.
الثاني: ثلاثة أيام، قاله قتادة.
الثالث: سبعة أيام، قاله جعفر.
الرابع: أربعون يوماً، قاله أبو مالك، وقيل سار بيونس حتى مر به إلى الإيلة ثم عاد في دجلة إلى نينوى.

النكت والعيون [٥/ ٦٧، ٦٨]

(١) قال تعالى: ﴿وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾ [الصافات: ١٤٦] قال ابن كثير: قال ابن مسعود وابن عباس وعكرمة ومجاهد وسعيد بن جبير ووهب بن منبه وهلال بن يساف وعبد اللّه بن طاووس والسدي وقتادة والضحاك وعطاء الخراساني وغير واحد: هو القرع. قال بعض العلماء: في إنبات القرع عليه حِكَم جمَّة، منها أن ورقه في غاية النعومة، وكثير وظليل، ولا يقربه ذباب، ويؤكل ثمره من أول طلوعه إلى آخره، نياً ومطبوخاً، وبقشره وببزره أيضاً. وفيه نفع كثير وتقوية للدماغ وغير ذلك.

قصص الأنبياء [٣٣٣]

قال البغوي: ﴿وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ﴾ أي: له، وقيل: عنده، ﴿شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾، يعني القرع، على قول جميع المفسرين.

تفسير البغوي [٧/ ٦١]

obeikandl.com

معجزة
موسى عليه السلام

- الآيات التي أهلك اللَّه بها آل فرعون
- تحول العصا إلى ثعبان
- بياض يده بالمخالفة للون جسمه
- انفلاق البحر وتجمد مائه
- الغمام من معجزات موسى عليه السلام
- المنَّ والسلوى
- انفجار الماء من الحجر
- رفع الجبل فوق بني إسرائيل
- قصة البقرة ومعجزة إحياء الموتى
- المعجزة الربانية لاختيار طالوت مالكاً

obeikandl.com

obeikandl.com

معجزة موسى عليه السلام

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ (١) [الأعراف: ١٣٠].

يفهم من الآية أن إهلاك اللَّه تعالى لآل فرعون لم يأت على الفور، بل جاء على مراحل. وهذا من رحمة اللَّه سبحانه وتعالى أنه يأخذ الكافرين بالشدة ليذكرهم بقوته وقدرته؛ لعلهم يتوبون إلى اللَّه ويرجعون إليه. والسنة هي العام ولكنها تطلق على الجدب والقحط (٢). وكان رسول اللَّه ﷺ حينما يدعو على

---

(١) قال فخر الدين الرازي: اعلم أنه تعالى لما حكى عن موسى عليه السلام أنه قال لقومه: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ﴾ لا جرم بدأ ههنا بذكر ما أنزله بفرعون وبقومه من المحن حالاً بعد حال، إلى أن وصل الأمر إلى الهلاك تنبيهاً للمكلفين على الزجر عن الكفر والتمسك بتكذيب الرسل، خوفاً من نزول هذه المحن بهم فقال: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ﴾.

التفسير الكبير [١٤/ ٢١٤]

قال الماوردي: قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ﴾ فيه قولان:

أحدهما: يعني بالجوع، قاله مجاهد، وقتادة.

والثاني: أن معنى السنين الجدوب، قاله الحسن.

والعرب تقول: أخذتهم السنة إذا قحطوا وأجدبوا.

قاله القرطبي: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ﴾ يعني الجدوب، وهذا معروف في اللغة؛ يقال: أصابتهم سَنَةٌ، أي جَدْب، وتقدير جَدْبُ سنة. وفي الحديث: «اللهم اجعلها عليهم سنين كسنى يوسف».

تفسير القرطبي [٧/ ٣٦٣، ٣٦٤]

(٢) قال فخر الدين الرازي: السنين جمع السنة، قال أبو علي الفارسي: السنة على معنيين:

أحدهما: يراد بها الحول والعام، والآخر يراد بها الجدب وهو خلاف الخصب، فما أريد به الجدب هذه الآية، وقوله ﷺ: «اللهم اجعلها عليهم سنيناً كسنين يوسف». وقول عمر رضي اللَّه عنه: إنا لا نقع في عام السنة، فلما كانت السنة يعنى بها الجدب، اشتقوا منها كما يشتق من الجدب. =

openkandil.com

الكفار من قومه يقول: «اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ»(١).. أي أعطهم شيئاً من القحط علهم يفيقون ويتأدبون ويرجعون إلى اللّه.

إذن.. فالسنة المراد بها القحط والجدب. ولكن لماذا سميت كذلك؟ لأن نعم اللّه على خلقه كثيرة ومتوالية، وابتلاءاته لهم في الكون قليلة، فمدة النعمة طويلة ومدة الشدة قصيرة.. حتى إنه من ندرتها يؤرخ لها، فيقال: هذه سنة الجراد، أو سنة الجدب، أو سنة الفيضان المغرق. لماذا يؤرخ بهذه الأحداث المفجعة؟ لأن الأحداث السارة مدتها طويلة جداً، ولكن أحداث البلاء عادة لا تحدث إلا على فترات متباعدة.

ولذلك إذا أحصى أي واحد منا أيام البلاء في عصره لوجدها قليلة بالنسبة لأيام الرخاء.

ولكن الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [الأعراف: ١٣٠].

فإذا كانت السنون هي الجدب والقحط.. فما هو النقص في الثمرات؟ نقول: قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾(٢) يدل على أنه من رحمته أنه ترك لهم بعض الثمرات لتحفظ لهم حياتهم. ولكن هذه الثمرات لم تعطهم عادة

= ويقال: أسنتوا، كما يقال: أجدبوا قال الشاعر:

ورجال مكة مسنتون عجاف

قال أبو زيد: بعض العرب تقول: هذه سنين، ورأيت سنيناً فتعرب النون ونحوه.

قال الفراء: ومنه قول الشاعر:

دعاني من نجد فإن سنينه لعبن بنا وشيبننا مردا

قال الزجاج: السنين في كلام العرب: الجدوب، يقال مستهم السنة ومعناه: جدب السنة وشدة السنة.

التفسير الكبير [١٤/ ٢١٤]

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري في الاستسقاء [١٠٠٦، ٦٢٠٠، ٦٣٩٣]، ومسلم [٦٧٥/ ٢٩٥] عن أبي هريرة رضي اللّه عنه.

(٢) قال ابن عطية: وقوله تعالى: ﴿ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ روي أن النخلة كانت لا تحمل إلا ثمرة واحدة، وقال نحوه رجاء بن حيوة، وأراد اللّه عزّ وجلّ أن ينيبوا ويزدجروا عمّا هم عليه من الكفر؛ إذ أحوال الشدة ترقق القلوب وترغب فيما عند اللّه.

المحرر الوجيز [٢/ ٤٤٣]

ما كانوا يأخذونه منها. فالنخل مثلاً بدلاً من أن يطرح ثمره المعتاد من البلح طرح الرُّبع أو العُشر مثلاً. لماذا؟ لأن اللَّه سبحانه وتعالى يريد أن يبقي أسباب رحمته لخلقه، فلو أنه انقطع الثمر تماماً لما وجد الناس قوتهم، وما بقيت الزروع على الأرض؛ لأنه لا بد من بذور لتزرع؛ حتى يبقى النوع في الأرض؛ ولذلك كان لا بد من ثمرات قليلة تحفظ نوع النبات وتبقيه، وتحفظ حياة الإنسان وتعطيه القدر اللازم لاستبقاء حياته، ولذلك فمن رحمة اللَّه أنه جعل ثمار الأشجار لا يُستساغ طعمها إلا إذا نضجت وأصبحت صالحة لأن تنتج بذرة، إذا وضعت في الأرض نبتت منها شجرة، ولو أن هذه الثمار كانت صالحة للأكل قبل أن تنضج لاختفت أنواع كثيرة من الزرع وانقرضت؛ لأن الإنسان كان سيأكل هذه الثمار قبل أن تكون صالحة لأن تكون بذرة؛ ولذا لا يجد بعد ذلك ما يزرعه.

ولا بد أن نلتفت إلى أن رحمة اللَّه سبحانه وتعالى في الدنيا للطائعين وللعاصين؛ لأن هذا عطاء ربوبية[١]،

واللَّه يفتح أبواب رحمته لنا جميعاً؛ للعاصي ليتوب، وللمؤمن ليزداد إيماناً[٢].

---

(١) قال ابن أبي العز الحنفي: توحيد الربوبية: كالإقرار بأنه خالق كل شيء، وأنه ليس للعالم صانعان متكافئان في الصفات والأفعال، وهذا التوحيد حق لا ريب فيه، وهو الغاية عند كثير من أهل النظر والكلام وطائفة من الصوفية، وهذا التوحيد لم يذهب إلى نقيضه طائفة معروفة من بني آدم؛ بل القلوب مفطورة على الإقرار به. أعظم من كونها مفطورة على الإقرار بغيره من الموجودات، كما قالت الرسل فيما حكى اللَّه عنهم: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠].
وأشهر من عُرف تجاهله وتظاهره بإنكار الصانع، فرعون وقد كان مستيقناً به في الباطن، كما قال له موسى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢].
وقال تعالى عنه وعن قومه: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]. ولهذا لما قال: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ على وجه الإنكار له تجاهل العارف، قال له موسى: ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ * قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ * قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ * قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ * قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٤ ـ ٢٨].

شرح العقيدة الطحاوية [٧٩، ٨٠]

(٢) قال ابن أبي العز الحنفي: قوله: «والإيمان: هو الإقرار باللسان، والتصديق بالجنان، وجميع ما صح عن رسول اللَّه ﷺ من الشرع والبيان كله حق. والإيمان واحد، وأهله=

والحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾.

ما معنى قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾[1]؟ القضية هنا تكمن في أن الإنسان

= في أصله سواء، والتفاضل بينهم بالخشية والتقى، ومخالفة الهوى، وملازمة الأولى».
والأدلة على زيادة الإيمان ونقصانه من الكتاب والسنة والآثار السلفية كثيرة جداً: منها: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢]، ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ [مريم: ٧٦]، ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا﴾ [المدثر: ٣١]، ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح: ٤]، ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]. وقد وصف النبي ﷺ النساء بنقصان العقل والدين. وقال ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين»[1] والمراد نفي الكمال، ونظائره كثيرة، وحديث شعب الإيمان، وحديث الشفاعة، وأنه يخرج من النار من في قلبه أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان، فكيف يقال بعد هذا: إن إيمان أهل السموات والأرض سواء؟! وإنما التفاضل بينهم بمعان أُخر غير الإيمان.
وكلام الصحابة رضي الله عنهم في هذا المعنى كثير أيضاً. منه: قول أبي الدرداء رضي الله عنه: من فقه العبد أن يتعاهد إيمانه وما نقص منه، ومن فقه العبد أن يعلم أيزداد هو أم ينتقص، وكان عمر رضي الله عنه يقول: هلموا نزدد إيماناً، فيذكرون الله تعالى عزّ وجلّ. وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول في دعائه: اللهم زدنا إيماناً ويقيناً وفقهاً. وكان معاذ بن جبل رضي الله عنه يقول لرجل: اجلس بنا نؤمن ساعة.

شرح العقيدة الطحاوية بتصرف [٣٣١/ ٣٤٤]

(١) قال فخر الدين الرازي: قال تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ وفيه مسألتان:
المسألة الأولى: ظاهر الآية أنه تعالى أنزل عليهم هذه المضار لأجل أن يرجعوا عن طريق التمرد والعناد إلى الانقياد والعبودية؛ وذلك لأن أحوال الشدة ترقق القلب وترغب فيما عند الله؛ والدليل عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧]. وقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: ٥١].
المسألة الثانية: قال القاضي: هذه الآية تدل على أنه تعالى فعل ذلك إرادة منه أن يتذكروا، لا أن يقيموا على ما هم عليه من الكفر.
أجاب الواحدي عنه: بأنه قد جاء لفظ الابتلاء والاختبار في القرآن، لا بمعنى أنه تعالى =

---

(١) أخرجه البخاري [١٥]، ومسلم [٤٤/ ٧٠] واللفظ له، عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

إذا أحس أنه قد استغنى بعلمه أو بقوته عن اللّه، فإنه يطغى؛ وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ • أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾[1] [العلق: ٦، ٧].

والإنسان هو مستخلف في الأرض، ولو ظل الإنسان متنبهاً إلى هذه الحقيقة لصلح الكون كله؛ ولكن الذي يفسد الكون هو أن الإنسان تفتنه أسباب الحياة؛ فينسى المُسبب الذي خلق هذه الأسباب وأخضعها له.

نحن الآن إذا أردنا أن نشرب فتحنا صنبور المياه فينزل الماء، وقد نتذكر كل شيء؛ شبكات التكرير، والمواسير إلى آخر ما استطاع العلم أن يقدمه لنقل الماء إلى المكان الذي نعيش فيه؛ ولكننا ننسى خالق هذا كله. ولقد كان الإنسان في الماضي يشرب من البئر، فكان يعيش مع المسبب، فإذا جفت البئر قليلاً أو نقص ماؤها، أسرع يرفع يديه إلى السماء، ويقول: يا رب.. ولكن بعد أن يكشف شيئاً من علمه نستطيع به أن نصل إلى الماء على أعماق كبيرة، ونعرف أين أماكن تجمعات المياه، فإذا حدث الآن نوع من الجفاف، واستطعنا أن نصل باستخدام العلم إلى الماء على أعماق كبيرة، ننسب حصولنا على المياه إلى الآلة التي حفرت، وإلى المهندسين الذين صنعوا، وإلى أي شيء دنيوي، ناسين أن اللّه سبحانه وتعالى هو الذي أودع لنا الماء على هذا العمق، ثم هدانا بأن كشف لنا ما يعيننا على استخراجه.

= يمتحنهم، لأن ذلك على اللّه محال، بل بمعنى أنه تعالى عاملهم معاملة تشبه الابتلاء والامتحان، فكذا ههنا. واللّه أعلم.

التفسير الكبير [١٤/ ٢١٤، ٢١٥]

(١) قال القرطبي: ﴿كَلَّآ﴾ بمعنى حقاً؛ إذ ليس قبله شيء. والإنسان هنا أبو جهل، والطغيان مجاوزة الحد في العصيان.

﴿أَن رَّءَاهُ﴾ أي لأنه رأى نفسه استغنى؛ أي صار ذا مال وثروة.

وقال ابن عباس في رواية أبي صالح عنه: لما نزلت هذه الآية وسمع بها المشركون أتاه أبو جهل فقال: يا محمد، تزعم أنه من استغنى طغى، فاجعل لنا جبال مكة ذهباً لعلنا نأخذ منها فنطغى فندع ديننا ونتبع دينك.

قال: فأتاه جبريل عليه السلام فقال: «يا محمد خيِّرهم في ذلك فإن شاءوا فعلنا بهم ما أرادوه، فإن لم يُسلموا فعلنا بهم كما فعلنا بأصحاب المائدة».

فعلم رسول اللّه ﷺ أن القوم لا يقبلون ذلك؛ فكف عنهم إبقاءً عليهم.

وقيل: ﴿أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ بالعشيرة والأنصار والأعوان.

تفسير القرطبي [٢٠/ ١٢٣]

obeikandl.com

وكذلك كل شيء في الدنيا ننسبه إلى الأسباب، وننسى المُوجِد أو المسبب، مع أننا لو أخذنا الأسباب وتتبعناها إلى البداية عادت كلها إلى اللَّه سبحانه وتعالى.

إذن.. فما دامت الأسباب تعطي في الدنيا، فإننا ننسى خالق الأسباب، ولا نتذكره إلا عندما تفشل الأسباب في أن تعطينا ما نريد. حينئذ يرفع الإنسان يديه إلى السماء ويصيح: يا رب.

وهكذا فعل الحق مع آل فرعون.. تعودوا أن يزرعوا وتعطيهم الأرض من خيراتها الكثير، وحسبوا أن ذلك بعلمهم، فجاء الحق سبحانه وتعالى ليلفتهم إلى أن ذلك من عطاء اللَّه، فعندما زرعوا هلك معظم المحصول، وما بقي منه أعطاهم ثمراً قليلاً.

إذن.. تخلت عنهم الأسباب، وفي هذه الحالة لا يجدون أمامهم إلا المُسبِّب.. وأن يقولوا: يا رب.

وفي القرآن الكريم ما يلفتنا إلى هذه الطبيعة البشرية. فالحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾[1] [يونس: ١٢] فقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾[2] أي: لعلهم ينتبهون ويعرفون أن هذه النعم التي يتمتعون بها ليست

---

(١) قال القرطبي: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ﴾ قيل: المراد بالإنسان هنا الكافر، قيل: هو أبو حذيفة بن المغيرة المشرك، تصيبه البأساء والشدة والجهد.
﴿دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ﴾ أي على جنبه مضطجعاً ﴿أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾ وإنما أراد جميع حالاته؛ لأن الإنسان لا يعدو إحدى هذه الثلاث.
قال بعضهم: إنما بدأ بالمضطجع لأن بالضر أشد في غالب الأمر، فهو يدعو أكثر، واجتهاده أشد، ثم القاعد ثم القائم ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ﴾ أي: استمر على كفره، ولم يشكر ولم يتعظ.
قلت: وهذه صفة كثير من المخلصين الموحدين، إذا أصابته العافية مر على ما كان عليه من المعاصي؛ فالآية تعمّ الكافر وغيره.
﴿كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ﴾ قال الأخفش: هي «كأن» الثقيلة خففت، والمعنى: كأنّه، وأنشد:

وي كأن من يكن له نشب يحـ ـبب ومن يفتقر يعش عيش ضرّ

تفسير القرطبي [٨/ ٣١٧]

(٢) قال الزمخشري: ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ فيتنبهوا على أن ذلك لإصرارهم على الكفر، وتكذيبهم لآيات اللَّه، ولأن الناس في حال الشدة أضرع خدوداً وألين أعطافاً وأرق أفئدة.

الكشاف [٢/ ٨٤]

من صنعهم؛ ولكنها من صنع اللّه، ويؤمنون ويكفون عن إيذاء موسى، ويصدقون برسالته عليه السلام.

ولكن ماذا كان تصرف آل فرعون؟ يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ﴾ (١).

والحسنة هي الأمر الذي يأتي من ورائه الخير، وهي مرة تكون لك، ومرة تطلب منك، والحسنة التي لك هي في ذاتها مثل: العافية والسلامة، وهي في مقومات الذات، وفي المادة كالنبات والحيوان الخ.. أما الحسنة التي تطلب منك، فهي أيضاً لك كأن يُطلب منك أن تقوم بعمل طيب يعطيك أجراً في الآخرة.

إذن.. الحسنة المطلوبة في منهج اللّه سبحانه وتعالى حسنتان:

الحسنة الأولى: موقوتة بزمن وهو عمرك في الدنيا.

والحسنة الثانية: تستمر إلى زمن غير محدود، وهي حسنة الآخرة؛ ولذلك فإن حسنات الآخرة هي الأرجح بالنسبة للإنسان.

آل فرعون عندما يرفع اللّه عنهم الجدب لفترة، وتعطيهم الأرض من خيراتها يقولون: ﴿لَنَا هَٰذِهِۦ . . .﴾ (٢). أي أننا نستحق هذا الخير؛ لأننا قد حرثنا الأرض، ووضعنا البذرة وسقينا... إلى آخر هذا. تماماً كما قال قارون: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ

---

(١) قال ابن عطية: كان القصد في إصابتهم بالقحط والنقص في الثمرات أن ينيبوا ويرجعوا، فإذا بهم قد ضلوا وجعلوها تشاؤماً بموسى، فكانوا إذا اتفق لهم اتفاق حسن في غلات ونحوها قالوا: هذا لنا وبسببنا وعلى الحقيقة لنا، وإذا نالهم ضر قالوا: هذا بسبب موسى وشؤمه.

المحرر الوجيز [٢/ ٤٤٣]

قال فخر الدين الرازي:

﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ﴾ قال ابن عباس: يريد بالحسنة العشب والخصب والثمار والمواشي والسعة في الرزق والعافية والسلامة. ﴿قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ﴾ أي: نحن مستحقون على العادة التي جرت من كثرة نعمنا وسعة أرزاقنا ولم يعلموا أنه من اللّه فيشكروه عليه ويقوموا بحق النعمة فيه.

التفسير الكبير [٤/ ٢١٥].

(٢) قال الزمخشري: ﴿قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ﴾ أي: هذه مختصة بنا، ونحن مستحقوها، ولم نزل في النعمة والرفاهية.

الكشاف [٢/ ٨٤]

عِندِيٓ﴾[1] [القصص: ٧٨] أي نسب الأسباب لنفسه فخسف اللَّه به وبداره الأرض[2]؛ لتعرف الدنيا كلها أنه لا حول ولا قوة إلا باللَّه العلي العظيم، وأن الإنسان مستخلف في الكون، وأن الأسباب خاضعة للإنسان بأمر اللَّه خالقها ومسببها وليس بقدرة البشر.

آل فرعون اتبعوا أسلوب قارون، فكانوا إذا جاءت الأرض بمحصول حسن قالوا: هذا جهدنا وعلمنا، ولكن ماذا يحدث إذا أجدبت الأرض مرة أخرى؟ هل يرجعون إلى اللَّه ويعترفون بالحق؟.. لا، إنهم ﴿يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾[3] [الأعراف: ١٣١].

إذن كانوا إذا جاءتهم الحسنة نسبوها لأنفسهم، وإذا جاءت السيئة تشاءموا بموسى ومن آمن معه.

الطِّيرة هي التشاؤم[4]، وهو ضد التفاؤل. ويقال: فلان طائره نحس، وفلان

قال أبو جعفر النحاس: قال مجاهد: ﴿قَالُوٓاْ لَنَا هَٰذِهِۦ﴾ أي: بحق أصابتنا.

وقال غير مجاهد: أي: كذا العادةُ أن يُصيبنا الخيرُ.

معاني القرآن الكريم [٣/ ٦٧]

(١) قال القرطبي: يعني علم التوراة. وكان فيما رُوي من أقرأ الناس لها، ومن أعلمهم بها، وكان أحد العلماء السبعين الذين اختارهم موسى للميقات.

وقال ابن زيد: أي إنما أوتيته لعلمه بفضلي ورضاه عني.

فقوله: ﴿عِندِيٓ﴾ معناه: إن عندي أن اللَّه تعالى آتاني هذه الكنوز على علم منه باستحقاقي إياها لفضل فيّ.

وقيل: أوتيته على علم من عندي بوجوه التجارة والمكاسب؛ قاله علي بن عيسى: ولم يعلم أن اللَّه لو لم يسهل له اكتسابها لما اجتمعت عنده.

وقال ابن عباس: على علم عندي بصنعة الذهب.

تفسير القرطبي [١٣/ ٣١٥]

(٢) إشارة إلى قول اللَّه تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص: ٨١].

(٣) قال الزمخشري: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ من ضيق وجدب. ﴿يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ يتطيروا بهم ويتشاءموا، ويقولوا: هذه بشؤمهم، ولولا مكانهم لما أصابتنا، كما قالت الكفرة لرسول اللَّه ﷺ: هذه من عندك.

الكشاف [٢/ ٨٤]

(٤) قال صاحب اللسان: وقيل للشؤم: طائرٌ وطيرٌ وطيرة؛ لأن العرب كان من شأنها عيافة=

طائره يُمن. وكانوا في الماضي إذا شغلهم أمر يأتي الواحد منهم بطائر يضعه على يده ثم يطلقه، فإذا طار يميناً فهذا فأل حسن، وإذا طار يساراً تشاءم الرجل[١].

= الطير وزجرها، والتطير ببارحها ونعيق غُرابها وأخذها ذاتَ اليسار إذا أثاروها، فسموا الشؤم طيراً وطائراً وطيرةً لتشاؤمهم بها، ثم أعلم اللّه جل ثناؤه على لسان رسوله ﷺ أن طيرتهم بها باطلة، وقال: «لا عَدْوَى ولا طِيرة ولا هامة»[١]، وكان النبي ﷺ، يتفاءل ولا يتطير.

لسان العرب [٤/ ٥١٢]

(١) قال القرطبي: وكانت العرب تتيمن بالسانح، وهو الذي يأتي من ناحية اليمين، وتتشاءم بالبارح، وهو الذي يأتي من ناحية الشمال. وكانوا يتطيرون أيضاً بصوت الغراب، ويتأولونه البين.

وكانوا يستدلون بمجاوبات الطيور بعضها بعضاً على أمور، وبأصواتها في غير أوقاتها المعهودة على مثل ذلك، وهكذا الظِّباء إذا مضت سانحة أو بارحة.

ويقولون إذا برحت: «من لي بالسانح بعد البارح»، إلّا أن أقوى ما عندهم كان يقع في جميع الطير؛ فسموا الجميع تطيراً من هذا الوجه، وتطيّر الأعاجم إذا رأوا صبيًّا يُذهب به إلى المعلم بالغداة، ويتيمنون برؤية صبي يرجع من عند المعلم إلى بيته، ويتشاءمون برؤية السّقاء على ظهره قربة مملوءة مشدودة، ويتيمنون برؤية فارغ السقاء مفتوحة، ويتشاءمون بالحمال المثقل بالحمل، والدابة الموقرة[٢]، ويتيمنون بالحمال الذي وضع حمله، وبالدابة يحط عنها ثقلها. فجاء الإسلام بالنهي عن التطير والتشاؤم بما يُسمع من صوت طائرٍ ما كان، وعلى أي حال كان؛ فقال عليه السلام: «أقروا الطير على وكناتها»[٣]. وذلك أن كثيراً من أهل الجاهلية كان إذا أراد الحاجة أتى الطير في وكرها فنفرها، فإن أخذت ذات اليمين مضى لحاجته، وهذا هو السانح عندهم. وإن أخذ ذات الشمال رجع، وهذا هو البارح عندهم.

تفسير القرطبي [٧/ ٢٦٥] =

---

(١) أخرجه مسلم [٢٢٢/ ١٠٢] عن أبي هريرة بلفظ: «لا عدوى ولا طيرة ولا صفر ولا هامة».

(٢) الدابة الموقرة: التي عليها حمل ثقيل، والموقرة أيضاً التي أصابتها الوقرة، وهي الصدع في الساق.

لسان العرب [٥/ ٢٨٩].

(٣) الوَكْن بالفتح: عُش الطائر، زاد الجوهري: في جبل أو جدار: أو الوكنة: موضع يقع عليه الطائر للراحة ولا يثبت فيه. والموكن: هو الموضع الذي تكن فيه على البيض. لسان العرب [١٣/ ٤٥٢] والحديث أخرجه أحمد في المسند [٦/ ٣٨١]، والحاكم في المستدرك [٤/ ٢٣٨] وصححه، ووافقه الذهبي، والبيهقي في السنن الكبرى [١٩٣٣٦] عن أم كرز الكعبية.

اللَّه سبحانه وتعالى يريد أن يلفتهم إلى أن هذا الجدب ليس من فعل موسى عليه السلام؛ لأن موسى لا يملك في كون اللَّه شيئاً، إنما مالك الكون هو ربهم ورب موسى؛ ولذلك فاللَّه سبحانه وتعالى لا يريد لأحد أن يُفْتَنَ في موسى عليه السلام، فيقول إنه قادر على أن يأتي بالزرع والخير، وقادر على أن يذهب بهذا الخير ويجعل الأرض جدباً؛ لذلك فهو يقول لهم: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾، أي: الذي يأتي بالجدب والذي يأتي بالخير هو اللَّه سبحانه وتعالى.

على أننا نلاحظ أن كلمة طائر جاءت في أكثر من موضع في القرآن الكريم، يقول سبحانه: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾[1] [الإسراء: ١٣].

فكيف يتأتى هذا مع قوله تعالى: ﴿طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾[2] [الأعراف: ١٣٠].

= قال المدائني: سألت رؤبة بن العجاج قلت: ما السائح؟ قال: ما ولَّاك ميامنه. قلت: فما البارح؟ قال: ما ولَّاك مياسره والذي يجيء من أمامك فهو الناطح والنطيح، والذي يجيء من خلفك فهو القاعد والقعيد.

فتح المجيد [٢٩٥]

(١) قال القرطبي: قال ابن عباس: ﴿طَٰٓئِرَهُۥ﴾ عمله وما قُدّر عليه من خير وشر، وهو ملازمه أينما كان.

وقال مقاتل والكلبي: خيره وشره معه لا يفارقه حتى يحاسَب به.

وقال مجاهد: عمله ورزقه، وعنه: ما من مولود يولد إلا وفي عنقه ورقة فيها مكتوب شقي أو سعيد.

وقال الحسن: ﴿أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ﴾ أي شقاوته وسعادته، وما كتب له من خير وشر، وما طار له من التقدير، أي صار له عند القسمة في الأزل.

وقيل: أراد به التكليف، أي قدرناه إلزام الشرع، وهو بحيث لو أراد أن يفعل ما أمر به وينزجر عما زجر عنه أمكنه ذلك.

القرطبي [١٠/٢٢٩]

(٢) قال الرازي: في الطائر قولان: القول الأول: قال ابن عباس: يريد شؤمهم عند اللَّه تعالى، أي من قبل اللَّه؛ أي إنما جاءهم الشر بقضاء اللَّه وحكمه، فالطائر ههنا الشؤم، ومثله قوله تعالى في قصة ثمود: ﴿قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [النمل: ٤٧].

قال الفراء: وقد تشاءمت اليهود بالنبي ﷺ بالمدينة، فقالوا: غلت أسعارنا، وقلّت أمطارنا مُذْ أتانا. قال الأزهري: وقيل للشؤم: طائر وطير وطيرة؛ لأن العرب كان من شأنها عيافة الطير وزجرها، والتطير ببارحها، ونعيق غربانها، وأخذها ذات اليسار إذا أثاروها، فسموا الشؤم طيراً وطائراً وطيرة لتشاؤمهم بها.

القول الثاني: في تفسير الطائر قال أبو عبيدة: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي حظهم. وهو=

نقول إن أحداث الحياة صنفان:

الأول: حدث لك فيه دخل.. فالتلميذ الذي لا يذاكر يرسب، وقائد السيارة الذي لا يجيد فن القيادة يُكثر من ارتكاب الحوادث.

والصنف الآخر من الأحداث هو الذي يقع على الإنسان.. وهو الذي لا دخل للإنسان فيه، كأن يصاب في حادث أو تقع عليه شجرة أو يصيبه مرض. إذن كل الأشياء القدرية التي تقع على الإنسان لا دخل له فيها، هي من عند اللّه.

إذن.. قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ ينطبق على كل الأحداث التي لك دخل فيها؛ كأن تقصر في الصلاة فلا تصلي، أو لا تتصدق، أو تخالف منهج اللّه في الأمر والنهي؛ لك يد في كل هذا؛ لأنك خُلقت مختاراً في أن تفعل أو لا تفعل[١]. وساعة تُجازى على ذلك في

= ما روي عن ابن عباس رضي اللّه عنهما أنه قال: إنما طائرهم ما قضي عليهم وقدر لهم والعرب تقول: أطرت المال وطيرته بين القوم فطار لكل منهم سهمه، أي حصل له ذلك السهم.

واعلم أن على كلا القولين، المعنى: أن كل ما يصيبهم من خير أو شر فهو بقضاء اللّه تعالى وبتقديره.

التفسير الكبير [١٤/ ٢١٥، ٢١٦]

(١) قال ابن أبي العز الحنفي: اختلف الناس في أفعال العباد الاختيارية. فزعمت الجبرية ورئيسهم الجهم بن صفوان السمرقندي أن التدبير في أفعال الخلق كلها للّه تعالى، وهي كلها اضطرارية، كحركات المرتعش، والعروق النابضة، وحركات الأشجار، وإضافتها إلى الخلق مجازاً، وهي على حسب ما يضاف الشيء إلى محله دون ما يضاف إلى محصله!

وقابلتهم المعتزلة، فقالوا: إن جميع الأفعال الاختيارية من جميع الحيوانات بخلقها، لا تعلق لها بخلق اللّه تعالى.

واختلفوا فيما بينهم: أن اللّه تعالى يقدر أفعال العباد أم لا!

وقال أهل الحق: أفعال العباد بها صاروا مطيعين وعصاة، وهي مخلوقة للّه تعالى والحق سبحانه وتعالى منفرد بخلق المخلوقات، لا خالق لها سواه.

فالجبرية غلوا في إثبات القدر، فنفوا صنع العبد أصلاً، كما عملت المشبهة في إثبات الصفات، فشبهوا.

والقدرية نفاة القدر جعلوا العباد خالقين مع اللّه تعالى، ولهذا كانوا «مجوس هذه=

الآخرة، فلتعرف أنك أنت الذي دفعت نفسك إلى هذا المصير.

أما الأشياء القدرية التي تحدث ولا دخل لك فيها فلها حكمة؛ لأن اللَّه سبحانه وتعالى يجري كل شيء بقدر وله فيه حكمة ولو لم نعرفها. قد يأتي ابنك المجتهد ويمرض يوم الامتحان؛ فلا يذهب ليمتحن فيرسب؛ هذه مصيبة في نظرك، ولكن.. ما الذي يدريك أن اللَّه سبحانه وتعالى قد قدر هذا الأمر ليحفظ على ابنك حياته من حادث أو غيره.

إذن.. فكل قدر يجري عليك هو خير، له حكمة وإن لم تعرفها ونحن نعلم أن من أركان الإيمان، الإيمان بالقضاء والقدر خيره وشره[(١)] والرسول ﷺ يقول: «عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سرَّاء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضرَّاء صبر، فكان خيراً له»[(٢)].

ولذلك عندما تطيَّر آل فرعون بموسى... كان الرد الحاسم الجازم: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

أي هذه الأحداث من الجدب ونقص الثمرات وغيرها إنما تأتيكم من اللَّه، وهي خير في الحقيقة لأنها تلفتكم إلى الإيمان.

= الأمة»؛ بل أردأ من المجوس، من حيث إن المجوس أثبتوا خالقَين، وهم أثبتوا خَالِقين!!

وهدى اللَّه المؤمنين أهلَ السنة لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، واللَّه يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

شرح العقيدة الطحاوية [٤٣٦، ٤٣٧]

(١) عن عمر بن الخطاب رضي اللَّه عنه قال: بينما نحن عند رسول اللَّه ﷺ ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه وقال يا رسول اللَّه أخبرني عن الإسلام؟ فقال رسول اللَّه ﷺ: «الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا اللَّه وأن محمداً رسول اللَّه ﷺ، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج بالبيت إن استطعت إليه سبيلاً» قال: صدقت. قال: فعجبنا له يسأله ويصدقه. قال: فأخبرني عن الإيمان؟ قال: «أن تؤمن باللَّه وملائكته، ورسله، واليوم الآخرة، وتؤمن بالقدر خيره وشرّه». قال: صدقت.. الحديث.

أخرجه بطوله البخاري [٤٧٧٧]، ومسلم [٧٨] واللفظ له

(٢) أخرجه مسلم [٢٩٩٩] عن صهيب بن سنان الرومي رضي اللَّه عنه.

obeikandl.com

أما الأشياء التي للإنسان دخل فيها فالحق سبحانه وتعالى يقول عنها: ﴿طَٰٓئِرُهُمْ فِي عُنُقِهِمْ﴾. أي كل إنسان يصنع ما يؤهله للخير أو للشر في الآخرة. واليهود في المدينة تطيَّروا برسول الله ﷺ، حينما قالوا: قلَّت الأمطار وغَلَتِ الأسعار من شؤم مجيء هذا الرجل[1]. ولكن هؤلاء اليهود لم يفهموا حكمة الله، فقد كانوا مسيطرين على حركة السوق والربا والمكيدة والدس بين الأوس والخزرج؛ وإشعال نار الحرب بينهما، ولذلك فالله سبحانه وتعالى يلفتهم إلى أن كل الأسباب التي يملكونها لا تنفع؛ لأن الله يستطيع أن يذهب بها جميعاً.

وقول الحق سبحانه وتعالى عن آل فرعون: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[2].

معناه: أنه توجد قلة تعلم وكثرة لا تعلم، فلماذا لم تتحدث القلة التي تعلم بما تعلمه؟ نقول: إن هذه القلة ربما سكتت خوفاً من طغيان فرعون.

على أن آل فرعون رغم هذه الآيات التي أخذهم الله بها مضوا في تحديهم، فهذه الآيات كان من المفروض أن تلفتهم إلى قدرة الحق سبحانه وقدرته، ولكنهم عموا وصمُّوا وغرهم ما هم فيه من فرط جهلهم: ﴿وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾[3] [الأعراف: ١٣٢].

وهذا تصرف منهم يوجب حدوث الهلاك لهم، فقد أخذوا الآيات التي أراد

---

(١) راجع قول الرازي: قال الفراء.. هامش رقم (٢) صفحة ١٢٤.

(٢) وقال الخازن: يعني أن ما أصابهم من الله تعالى، وإنما قال: ﴿أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لأن أكثر الخلق يضيفون الحوادث إلى الأسباب ولا يضيفونها إلى القضاء والقدر.

تفسير الخازن [٢/ ٥٦٦]

(٣) قال فخر الدين الرازي: إعلم أنه تعالى حكى عنهم في الآية الأولى أنهم لجهلهم أسندوا حوادث هذا العالم لا إلى قضاء الله تعالى وقدره، فحكى عنهم في هذه الآية نوعاً آخر من أنواع الجهالة والضلالة؛ وهو أنهم لم يميزوا بين المعجزات وبين السحر، وجعلوا جملة الآيات مثل انقلاب العصا حية من باب السحر منهم. وقالوا لموسى: إنا لا نقبل شيئاً منها البتة.

التفسير الكبير [١٤/ ٢١٦]

قال الزمخشري: فإن قلت: كيف سموها آية ثم قالوا لتسحرنا بها؟

قلت: ما سموها آية لاعتقادهم أنها آية وإنما سموها اعتباراً لتسمية موسى، وقصدوا بذلك الاستهزاء والتلهي.

الكشاف [٢/ ٨٥]

اللَّه أن يلفتهم بها لصدق نبيه على أنها سحر، مع أن السحرة الذين هم سادة فن السحر خروا ساجدين للَّه وآمنوا برب موسى وهارون[١].

و﴿مَهْمَا﴾ هنا تدل على استمرارية العناد، وتصميم على عدم الاستماع إلى منهج اللَّه[٢]. أي أنهم أغلقوا الباب نهائياً، فهم لن يؤمنوا مهما جاءهم من آيات. وفي وصفهم الآيات بأنها سحر غفلة منهم؛ لأن المسحور لا إرادة له مع الساحر.

ولذلك قولهم عن رسول اللَّه ﷺ أنه ساحر، وأنه يسحر الناس ليؤمنوا، قول مردود عليهم؛ لأنه ما دام قد سحر الناس ليؤمنوا فلماذا لا يسحركم أنتم؟ ولكن كونكم لم تُسحروا وتصرون على العناد وعدم الإيمان؛ دليل على أن المسألة ليس فيها سحر ولكن فيها مكابرة، وأنت عندما تسمع كلمة ﴿مَهْمَا﴾ تعرف أن هناك شرطاً وجواباً، ويقول العلماء: إن أصلها «مه» بمعنى كف[٣] أي أنهم يقولون لموسى: كف عن هذا الأمر، فما تأتنا به من آيات لا نصدقه.

---

(١) قال ابن الجوزي: لما زالت كل شبهة بما أظهره اللَّه تعالى من أمره، اضطرهم عظيم ما عاينوا إلى مبادرة السجود، فصاروا مفعولين في الإلقاء تصحيحاً وتعظيماً لشأن ما رأوا من الآيات؛ ذكره ابن الأنباري.

زاد المسير [٣/ ١٦٤]

(٢) قال ابن كثير: أي مهما جئتنا به من الآيات ـ وهي الخوارق للعادات ـ فلسنا نؤمن بك ولا نتبعك ولا نطيعك، ولو جئتنا بكل آية وهكذا أخبر اللَّه عنهم في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].

قصص الأنبياء [٣٨٤]

(٣) مَهْ: زجر ونهي. ومَهْ: كلمة بُنيت على السكون، وهو اسم سُمِّي به الفعل معناه: اكفف؛ لأنه زجر. ومهما: حرف شرط. قال سيبويه: أرادوا: ماما، فكرهوا أن يعيدوا لفظاً واحداً، فأبدلوا هاءً من الألف الذي يكون في الأول؛ ليختلط اللفظ. وقال بعضهم: جائز أن تكون مَهْ بمعنى: الكفّ، كما تقول: مَهْ أي: اكفف، وتكون «ما» الثانية للشرط والجزاء، كأنهم قالوا: اكفف ما تأتنا به من آية.

لسان العرب [١٣/ ٥٤٢] بتصرف

obeikandl.com

الآيات التي أهلك اللَّه بها آل فرعون

وأمام إصرارهم وعنادهم أرسل الحق سبحانه وتعالى عليهم مزيداً من الآيات؛ لعلهم يؤمنون، وذلك قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٣].

والطوفان[١] هو طغيان الماء، يجعله اللَّه سبباً للدمار، ولكن الماء هو سبب الحياة فكيف يكون سبباً للدمار؟ نقول: لا تأخذوا نعم الدنيا بذاتيتها.. ولكن خذوها بتوجيهات القادر لها.. فالماء الذي خلق اللَّه تعالى منه كل شيء حي، إذا أراد سبحانه أن يجعله هلاكاً أو دماراً جعله طوفاناً كالذي حدث في

---

(١) قال الزمخشري: الطوفان: ما طاف بهم وغلبهم من مطر أو سيل. وعن أبي قلابة الطوفان: الجدري، وهو أول عذاب وقع فيهم في الأرض.
وقيل: هو الموتان، وقيل: الطاعون.
قال الماوردي: أما الطوفان ففيه ستة أقاويل:
أحدها: أنه الغرق بالماء الزائد؛ قاله ابن عباس.
والثاني: أنه الطاعون؛ قاله مجاهد.
والثالث: أنه الموت؛ قاله عطاء. وروت عائشة قالت: قال رسول اللَّه ﷺ: «الطوفان: الموت»[١].
والرابع: أنه أمر من اللَّه طاف بهم؛ وهو مروي أيضاً عن ابن عباس.
والخامس: أنه كثرة المطر والريح، واستدل قائل ذلك بقول الحسن بن عرفطة:

غير الجدة من عرفانه ... خرق الريح وطوفان المطر

والسادس: أنه عذاب من السماء، واستدل قائل ذلك بقول أبي النجم:

ومر طوفان فلبث شهراً ... فردا شآبيب وشهراً مدراً

النكت والعيون [٢/ ٢٥١، ٢٥٢]

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره [٩/ ٣١]، وذكره ابن كثير في تفسيره [٢/ ٢٣٠] وقال: وكذا رواه ابن مردويه من حديث يحيى بن يمان به، وهو حديث غريب.

عهد نبي اللَّه نوح عليه السلام، فأهلك به الكافرين ونجى المؤمنين[١].

ولكن الحق سبحانه وتعالى لم يذكر لنا هنا وجود سفينة كالتي لجأ إليها أتباع موسى، إذن.. الطوفان الذي أصاب آل فرعون لم يكن كالذي أصاب بني إسرائيل.

ولقد كان الطوفان في عهد فرعون قد بلغ الماء حتى نهاية أعلى الرقبة، بحيث لا بد أن يظل الإنسان واقفاً لكي يعيش، فإذا جلس كان تحت مستوى الماء فيختنق، وقيل: إن السماء أمطرت على آل فرعون سبعة أيام، لم يعرفوا فيها ليلاً أو نهاراً، وإن الماء الذي كان يغمر بيوت آل فرعون حتى كاد أن يغرقها نجا منه بنو إسرائيل ولم يقترب من بيوتهم[٢].

وهكذا كانت المعجزة واضحة تماماً لفرعون وقومه. فلو أن الطوفان عمَّ لقالوا: طوفان وجاء. ولو أن بني إسرائيل احتالوا للنجاة من الطوفان، بأن بنوا مكاناً عالياً، أو ركبوا سفينة لقالوا: لو لم يحتالوا لأصابهم الطوفان. ولكن المعجزة جاءت ظاهرة واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار، ليحيا من حيي عن بينة ويهلك من هلك عن بينة.

وعندما دخل الطوفان على فرعون صرخ واستنجد بموسى، وقال له: ادعُ لنا ربك يذهب عنا ما أصابنا، ونحن نؤمن لك. ودعا موسى ربه فرُفِع الطوفان، ولكن آل فرعون بعد أن أذهب اللَّه عنهم هذا البلاء نكثوا في عهدهم لموسى، فأرسل اللَّه عليهم الجراد ليهلك الزرع[٣]. ثم القُمَّل وهو غير القَمْل الذي يصيب

---

(١) قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦٤]. وانظر معجزة نبي اللَّه نوح عليه السلام من هذا الكتاب.

(٢) قال الزمخشري: قيل: طغى الماء فوق حروثهم وذلك أنهم مطروا ثمانية أيام في ظلمة شديدة، لا يرون شمساً ولا قمراً، ولا يقدر أحدهم أن يخرج من داره.

وقيل: أرسل اللَّه عليهم السماء حتى كادوا يهلكون، وبيوت بني إسرائيل وبيوت القبط مشتبكة، فامتلأت بيوت القبط ماء حتى قاموا في الماء إلى تراقيهم، فمن جلس غرق، ولم تدخل بيوت بني إسرائيل قطرة، وفاض الماء على وجه أرضهم وركد، فمنعهم من الحرث والبناء والتصرف، ودام عليهم سبعة أيام.

الكشاف [٢/ ٨٥]

(٣) قال محمد بن إسحاق: فرجع عدو اللَّه فرعون حين آمنت السحرة مغلوباً مغلولاً، ثم أبى إلا الإقامة على الكفر والتمادي في الشر، فتابع اللَّه عليه بالآيات، فأخذه بالسنين: =

الإنسان في بدنه وثيابه[١]، وهو حشرة تصيب النبات معروفة باسم «القراض».

ثم الضفادع[٢] كلما وضع أحدٌ من آل فرعون ـ رجل أو امرأة ـ يده في مكان وجدَ فيه ضفدعة: في الطعام ضفادع، في الماء ضفادع، في الثياب ضفادع.

= فأرسل عليه الطوفان، ثم الجراد، ثم القُمَّل، ثم الضفادع، ثم الدم، آيات مفصلات، فأرسل الطوفان ـ وهو الماء ـ ففاض على وجه الأرض ثم ركد. لا يقدرون على أن يحرثوا ولا أن يعملوا شيئاً، حتى جهدوا جوعاً.

فلما بلغهم ذلك ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الأعراف: ١٣٤].

فدعا موسى ربه فكشفه عنهم فلما لم يفوا له بشيء مما قالوا أرسل الله عليهم الجراد، فأكل الشجر فيما بلغني، حتى إنه كان يأكل مسامير الأبواب من الحديد، حتى تقع دورهم ومساكنهم، فقالوا مثل ما قالوا، فدعا ربه فكشف عنهم، فلم يفوا له بشيء مما قالوا. فأرسل الله عليهم القُمَّل، فذُكِر لي أن موسى عليه السلام أمر أن يمشي إلى كثيب حتى يضربه بعصاه. فمشى إلى كثيب أهيل عظيم، فضربه بها، فانثال عليهم قُمَّلاً، حتى غلب على البيوت والأطعمة، ومنعهم النوم والقرار.

قصص الأنبياء [٣٨٦، ٣٨٧]

(١) قال الماوردي:

﴿وَالْقُمَّلَ﴾ فيه خمسة أقاويل:

أحدها: أنه الدبى، وهو صغار الجراد لا أجنحة له.

والثاني: أنه السوس، الذي في الحنطة قاله ابن عباس.

والثالث: البراغيث، قاله ابن زيد.

والرابع: القردان، قاله أبو عبيدة.

والخامس: هو دواب سود صغار، قاله الحسن، وسعيد بن جبير، وشاهده قول الأعشى:

قوماً تعالج قُمّلاً أبناؤهم ... وسلاسلاً أُجُدا وباباً مؤصدا

وواحد القُمَّل قُمَّلة.

النكت والعيون [٢/ ٢٥٢]

(٢) قال ابن كثير: فلما جهدهم قالوا له مثل ما قالوا له، فدعا ربه فكشف عنهم فلم يفوا له بشيء مما قالوا، فأرسل الله عليهم الضفادع، فملأت البيوت والأطعمة والآنية، فلم يكشف أحد ثوباً ولا طعاماً، إلا وجد فيه الضفادع قد غلبت عليه.

قصص الأنبياء [٣٨٧]

openkandil.com

ثم جاء دور الدم[١] ؛ كل شيء يمسكه أحد من آل فرعون يتحول إلى دم، حتى قيل: إن المرأة من آل فرعون كانت إذا أرادت أن تشرب ماء ذهبت إلى امرأة من بني إسرائيل وقالت لها: خذي الماء في فمك وضعيه في فمي. كأنما تريد أن تحتال على اللّه، ولكن الماء في فم قوم موسى يكون ماء، فإذا ما دخل فم قوم فرعون انقلب دماً.

وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾[٢] [الأعراف: ١٣٣]. يعني أن اللّه لم يرسل كل هذه الآيات دفعة واحدة؛ بل كانت الآية تأتي لتنبه، فيستغيثوا ويَعِدوا بالإيمان، وعندما تُرفع عنهم ينكثوا في عهدهم فتأتي الآية الثانية فيَعِدوا فتُرفع فينكثوا، وتأتي الآية الثالثة وهكذا.

فلقد أرسل اللّه موسى عليه السلام إلى فرعون وآلِه بتسع آيات، وهي: العصا التي تحولت إلى ثعبان، واليد التي خرجت بيضاء، والسنين، ونقص الثمرات، والطوفان، والجراد، والقُمَّل، والضفادع، والدم.. لقد وصفها الحق سبحانه وتعالى بأنها آيات؛ لأن كلاً منها تخرق نواميس الكون فتصيب بإذن اللّه الكافر، وينجو منها المؤمن، حتى وإن كان الاثنان في مكان واحد.

---

(١) قال ابن كثير: فلما جهدهم ذلك قالوا له مثل ما قالوا، فدعا ربه فكشف عنهم، فلم يفوا بشيء مما قالوا، فأرسل اللّه عليهم الدم. فصارت مياه آل فرعون دماً، لا يستقون من بئر ولا نهر، ولا يغترفون من إناء، إلا عاد دماً عبيطاً. وقال زيد بن أسلم: المراد بالدم الرّعاف، رواه ابن أبي حاتم.

قصص الأنبياء [٣٤٤]

وقال زيد بن أسلم: الدم الذي سُلط عليهم كان الرُّعاف، فأتوا موسى وقالوا: يا موسى: ادع لنا ربك يكشف عنا هذا الدم فنؤمن بك، ونرسل معك بني إسرائيل، فدعا ربه عز وجلّ فكشف عنهم، فلم يؤمنوا، فلذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ يتبع بعضها بعضاً. وتفصيلها أن كل عذاب يمتد أسبوعاً، وبين كل عذابين شهراً.

معالم التنزيل [٣/ ٢٧٢]

(٢) قال الزمخشري: معنى مفصلات مبينات ظاهرات، لا يشكل على عاقل أنها من آيات اللّه التي لا يقدر عليها غيره، وأنها عبرة لهم ونقمة على كفرهم، أو فصل بين بعضها وبعض بزمان تمتحن فيه أحوالهم وينظر: أيستقيمون على ما وعدوا من أنفسهم أم ينكثون؟ إلزاماً للحجة عليهم.

الكشاف [٢/ ٨٦].

obeikandi.com

هذه هي المعجزات. ولكنهم رغم كل هذه الآيات كانوا يعدون بالإيمان ثم سرعان ما ينكثون وينقضون عهدهم بعد أن يرفع اللَّه عنهم البلاء بدعاء موسى عليه السلام يقول تعالى: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

و﴿ٱلرِّجْزُ﴾ هنا هو العذاب الذي ساقه اللَّه عليهم بالطوفان والجراد والقمَّل والضفادع والدم. ولم يجدوا نجاة من هذا كله في آخر الأمر إلا أن يلجؤوا لموسى، ويطلبوا منه أن يدعو اللَّه أن يكشف عنهم العذاب، وفي هذا قد اعترفوا بأن موسى مرسل من عند اللَّه، وأن العذاب الذي هم فيه لا يستطيع أن يصرفه عنهم إلا اللَّه[1].

إذاً... فهم أولاً: قد اعترفوا ببطلان ربوبية فرعون؛ لأنه لو كان فرعون رباً ما لجؤوا إلى موسى ليدعو اللَّه.

وهم ثانياً: اعترفوا بأن موسى مرسل من عند اللَّه، مقبول الدعاء عند ربه.

وهم ثالثاً: قد اعترفوا أنه لا يمكن أن يرفع عنهم هذا العذاب إلا اللَّه.

وقولهم: ﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ أي بما أعطاك من العهد بأن ينصرك؛ لأنك رسوله ولا يتخلى عنك.

ولقد استجاب الحق سبحانه وتعالى لدعوة موسى عليه السلام ورفع عنهم البلاء إلى موعد هم بالغوه لا محالة، وذلك قول اللَّه عزّ وجلّ: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾[2] [الأعراف: ١٣٥]. أي ينقضون

---

(١) قال فخر الدين الرازي: إنه تعالى بيَّن ما كانوا عليه من المناقضة القبيحة؛ لأنهم تارة يكذِّبون موسى عليه السلام، وأخرى عند الشدائد يفزعون إليه فزع الأُمَّة إلى نبيها، ويسألونه أن يسأل ربه رفْع ذلك العذاب عنهم، وذلك يقتضي أنهم سلموا إليه كونه نبياً مجاب الدعوة، ثم بعد زوال تلك الشدائد يعودون إلى تكذيبه والطعن فيه، وأنه إنما يصل إلى مطالبه بسحره، فمن هذا الوجه يظهر أنهم يناقضون أنفسهم في هذه الأقاويل.
التفسير الكبير [١٤/ ٢١٩، ٢٢٠]

(٢) قال أبو حيان: في الكلام حذف دل عليه المعنى، وهو: فدعا موسى فكشف عنهم الرجز، وأسند تعالى الكشف إليه؛ لأنه هو الكاشف حقيقة، فلما كان من قولهم أسندوه إلى موسى، وهو إسناد مجازي، ولما كان إخباراً من اللَّه أسنده تعالى إليه؛ لأنه إسناد حقيقي. ولما كان الرجز من جملة أخرى غير مقولة لهم حَسُن إظهاره دون ضميره، وكان جائزاً أن يكون التركيب في غير القرآن ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ﴾، ومعنى: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ=

العهد. . . وكان لهم مع كل آية من آيات العذاب عهد بالإيمان. . ومع كل رفع للعذاب نقض لهذا العهد ورجوع عنه. . فالحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ﴾ أي أن اللَّه سبحانه وتعالى هو الذي كشف، والكشف جاء استجابة لدعوة موسى عليه السلام عندما قال له قوم فرعون: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الأعراف: ١٣٤]. فاللَّه هو الذي جاء بالعذاب. . وهو الذي كشف هذا العذاب. . واللَّه يعلم أنهم سينقضون العهد. . ولكن اللَّه سبحانه وتعالى أراد أن يكونوا شهداء على أنفسهم حتى لا يجادلوا يوم القيامة، ويقولوا: يا رب لو كشفت عنا العذاب لآمنا. . ووصلت المسألة إلى نهايتها عندما نقضوا العهد مرات ومرات. . وكأن في هذا تحدياً وإصراراً على الكفر فجاءهم الهلاك. . وفي ذلك قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾[1] [الأعراف: ١٣٦].

= ﴿هُم بَٰلِغُوهُ﴾: إلى حد من الزمان هم بالغوه لا محالة، فيعذبون فيه، لا ينفعهم ما تقدم لهم من الإمهال وكشف العذاب إلى حلوله. قاله الزمخشري.

البحر المحيط [٥/ ١٥٣]

وقال ابن عطية: (والأجل) يريد به غاية كل واحد منهم بما يخصه من الهلاك والموت، هذا اللازم من اللفظ. كما تقول: أخرت كذا إلى وقت كذا، وأنت لا تريد وقتاً بعينه، وقال يحيى بن سلام: الأجل هاهنا الغرق، قال: وإنما قال هذا القول لأنه رأى جمهور هذه الطائفة قد اتفق أن هلكت غرقاً، فاعتقد أن الإشارة هنا بالأجل إنما هي إلى الغرق، وهذا ليس بلازم لأنه لا بد أنه مات منهم قبل الغرق عالَم، وهم ممن أخر وكشف عنهم العذاب إلى أجل بلغه.

المحرر الوجيز [٢/ ٤٤٥]

(١) قال أبو حيان: أي أحللنا بهم النقمة ـ وهي ضد النعمة ـ فإن كان الانتقام هو الإغراق فتكون الفاء تفسيرية وذلك على رأي من أثبت هذا المعنى للفاء وإلا كان المعنى: فأردنا الانتقام منهم والباء في ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ سببية، والآيات هي المعجزات التي ظهرت على يد موسى عليه السلام، والظاهر عود الضمير في ﴿عَنْهَا﴾ إلى الآيات أي غفلوا عما تضمنته الآيات من هدى والنجاة وما فكروا فيها وتلك الغفلة هي سبب التكذيب، وقيل: يعود الضمير على النقمة الدال عليها ﴿فَٱنتَقَمْنَا﴾ أي كانوا عن النقمة وحلولها بهم غافلين؛ والغفلة في القول الأول عني به الإعراض عن الشيء لأن الغفلة عنه والتكذيب لا يجتمعان حيث إن الغفلة تستدعي عدم الشعور =

وهكذا كان إغراق آل فرعون عدالة لأنهم هم الذين تحدوا.. وهم الذين استحقوا العقاب من اللّه.. لأنهم هم الذين نقضوا كل عهد وأصروا على الكفر.

= بالشيء، والتكذيب به يستدعي معرفته، ولأنه لو أريد صفة الغفلة لكانوا معذورين لأن تلك ليست باختيار العبد.

البحر المحيط [٥/ ١٥٤]

obeikandl.com

تحول العصا إلى ثعبان

يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾[١] [الأعراف: ١٠٧].

وقضية إلقاء العصا أخذت عدة لقطات في القرآن الكريم، وظن البعض أن ذلك تكرار لقصة واحدة، ولم يلحظوا أن كل إلقاء له معنى مستقل، فقد كانت هناك ثلاثة إلقاءات للعصا:

الإلقاء الأول: للتدريب حينما أعلم الله موسى عليه السلام بأنه اصطفاه رسولاً، وذلك في طور سيناء حين قال الحق سبحانه وتعالى لموسى: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾[٢] [طه: ١٤].

---

(١) قال أبو حيان: بدأ بالعصا دون سائر المعجزات لأنها معجزة تحتوي على معجزات كثيرة.
قالوا: منها أنه ضرب بها باب فرعون ففزع من قرعها، فشاب رأسه فخضب بالسواد، فهو أول من خضب بالسواد.
وانقلابها ثعباناً وانقلاب خشبة لحماً ودماً قائماً به الحياة من أعظم الإعجاز، ويحصل من انقلابها ثعباناً من التهويل ما لا يحصل في غيره.
وضربه بها الحجر فينفجر عيوناً، وضربه بها فتنبت، قاله ابن عباس.
ومحاربته بها اللصوص والسباع القاصدة غنمه.
واشتعالها في الليل كاشتعال الشمعة.
وصيرورتها كالرشا لينزح بها الماء من البئر العميقة.
وتلقفها الحبال والعصي التي للسحرة، وإبطالها لما صنعوه من كيدهم وسحرهم.
البحر المحيط [٥/ ١٣٠]

(٢) قال ابن الجوزي: قوله: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي﴾ أي: وَحِّدْني؛ ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾ فيه قولان:
أحدهما: أقم الصلاة متى ذكرت أن عليك صلاة، سواء كنت في وقتها أو لم تكن؛ هذا قول الأكثرين. وروى أنس رضي الله تعالى عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من نسي=

وكذلك قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ۝ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ۝ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾[1] [طه: ١٧ ـ ٢٠].

كان هذا هو إلقاء التدريب، حتى إذا جاء موسى وألقى العصا أمام فرعون فإنه سيكون متأكداً من أمرين:

أولاً: أن العصا ستنقلب فعلاً إلى حية بمجرد إلقائها؛ لأن الله لو أخبره دون أن يشهده لكانت التجربة تهزُّ نفس موسى عليه السلام بعنف؛ لأن انقلاب العصا إلى حية فجأة ولأول مرة سيهز موسى بلا شك، ولكنه لو شهد هذا عملياً لكان ثابت الجنَان وهو يلقي العصا أمام فرعون.

= صلاة فليصلها إذا ذكرها، لا كفارة لها غير ذلك، وقرأ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾[1].
والثاني: أقم الصلاة لتذكرني فيها؛ قاله مجاهد: وقيل: إن الكلام مردود على قوله: ﴿فَٱسْتَمِعْ﴾، فيكون المعنى: فاستمع لما يوحى، واستمع لذكري.

زاد المسير [٥/ ١٩٢]

(١) قال البغوي: قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ سؤال تقرير، والحكمة في هذا السؤال: تنبيهه وتوقيفه على أنها عصا، حتى إذا قلبها حية علم أنها معجزة عظيمة. وهذا على عادة العرب، يقول الرجل لغيره: هل تعرف هذا؟ وهو لا يشك أنه يعرفه، ويريد أن ينضم إقراره بلسانه إلى معرفته بقلبه.
﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ﴾، قيل: وكانت لها شعبتان، وفي أسفلها سنان، ولها محجن، قال مقاتل: اسمها نبعة.
﴿أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا﴾ أعتمد عليها إذا مشيت وإذا أعييت وعند الوثبة، ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾، أضرب بها الشجرة اليابسة ليسقط ورقها فترعاه الغنم.
﴿وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾، حاجات ومنافع أخرى، جمع مأربة بفتح الراء وضمها، ولم يقل «أُخَر» لرؤوس الآي. وأراد بالمآرب: ما يستعمل فيه العصا في السفر، وكان يحمل بها الزاد ويشد به الحبل، فيستقي الماء من البئر، ويقتل بها الحيات، ويحارب بها السباع، ويستظل بها إذا قعد وغير ذلك.
قال الله تعالى: ﴿أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ﴾، انبذها قال وهب: ظن موسى أنه يقول: ارفضها ﴿فَأَلْقَىٰهَا﴾ على وجه الرفض ثم حانت منه نظرة، ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ﴾ صفراء أعظم ما يكون من الحيات ﴿تَسْعَىٰ﴾، تمشي بسرعة على بطنها.

معالم التنزيل [٥/ ٢٦٨، ٢٦٩]

---

(١) أخرجه البخاري [٥٩٧]، ومسلم [٦٨٤/ ٣١٤] واللفظ له.

وهكذا رأى موسى يقيناً أن العصا ستنقلب حية بمجرد أن يلقيها، واطمأن قلبه إلى أن هذه الحية لن تؤذيه ولن تقتله، وهذا هام جداً، حتى لا يخاف أمام فرعون، أو يداخله شك في أن الحية يمكن أن تؤذيه.

وهكذا كان إلقاء التدريب الأول ضرورياً؛ لتثبيت موسى واعتياده على هذه النقلة الكبيرة من العصا إلى الحية.

الإلقاء الثاني: حين جاء موسى إلى فرعون؛ ليبلغه بأنه رسول رب العالمين.

الإلقاء الثالث: فهو إلقاء التحدي للسحرة(١).

فهناك إذن.. إلقاء التدريب، وإلقاء الإعلام بالرسالة، وإلقاء التحدي للسحرة. وما دام كل إلقاء له حكمة؛ فلا بد أن يذكر كل إلقاء على حدة.

المستشرقون والمشككون يثيرون بالنسبة لعصا موسى، فهم يقولون: إنه مرة يلقي عصاه فإذا هي ثعبان مبين، ومرة يلقيها فإذا هي حية تسعى، ومرة يقول كأنها جان(٢).

نقول: إن هناك فرقاً بين التناقض والتكامل، فالثعبان والحية والجانّ كلها أوجه ثلاثة تثير الرعب في نفس الإنسان، فالثعبان بطوله وحركته السريعة، والحية بشكلها المخيف، والجانّ بحركته ومنظره المرعب. فكأن العصا تمثلت في كل مرة بشكل يرعب من يراها.

ويمكن أن تكون العصا قد تمثلت في هذه الأوجه الثلاثة في كل مرة ألقاها فيها موسى؛ وحتى تثير الرعب في نفس كل من يراها، فإذا كان هناك أناس قد اعتادوا التعامل مع الثعابين يرون منظر الحية، وإذا كان هناك أناس اعتادوا منظر

---

(١) وهو قول الله: ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ * قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ * ۞ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الأعراف: ١١٥ ـ ١١٧].

(٢) قال البغوي: وقال في موضع آخر: ﴿كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ [النمل: ١٠] وهي الحية الصغيرة الخفيفة الجسم، وقال في موضع: «ثعبان»، وهو أكبر ما يكون من الحيات.
فأما الحية: فإنها تجمع الصغير والكبير والذكر والأنثى. وقيل: الجانّ عبارة عن ابتداء حالها، فإنها كانت حية على قدر العصا، ثم كانت تتورم وتنتفخ حتى صارت ثعباناً «والثعبان»: عبارة عن انتهاء حالها.
وقيل: إنها كانت في عظم الثعبان، وسرعة الجان.
معالم التنزيل [٥/ ٢٦٩]

الحية يرون منظر الجانّ، وفي هذه الحالة تكون العصا بانقلاباتها قد أخافت كل من يراها. والمهم هنا هو إشاعة الإبهام في نفوس كل المشاهدين؛ لأن الإبهام هو عين البيان.. فالشيء المبهم يكون غاية في البيان، ولذلك أبهم اللّه أمر الموت فجعله لا يحكمه سن ولا سبب ولا زمان ولا مكان؛ ليجعله اللّه شائعاً في كل زمان وكل مكان، ويجعلك تتوقعه في كل لحظة.

والحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ١٠٧]. و«إذا»[١] تعنى الفجائية، أي أنه في لحظة إلقاء موسى للعصا أصبحت ثعباناً، وفائدة التدريب على القضية في «طور سيناء»، هي تثبيت موسى على هذا التغيير الفجائي حتى يلقي العصا أمام فرعون، وهو عالم بما سيحدث مدرب عليه، فيكون ثابتاً، ولقد خاف موسى وقت التدريب، وخوفه هذا دليل على أنه عرف أن العصا قد تحولت حقيقة إلى ثعبان، وليس تخيّلاً، وهذا هو الذي جعل السحرة يسجدون؛ لأنهم أحسوا صدق ما حدث.

❁ ❁ ❁

(١) قال ابن هشام: (إذا) على وجهين:

أحدهما: أن تكون للمفاجأة، فتختص بالجمل الاسمية، ولا تحتاج إلى جواب، ولا تقع في الابتداء، ومعناها الحال لا الاستقبال، نحو: خرجت فإذا الأسدُ بالباب، ومنه: ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾، ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ﴾ [يونس: ٢١].

والثاني: من وجهي «إذا»: أن تكون لغير مفاجأة.

مغني اللبيب [١/ ١٠٢، ١٠٨]

openkandl.com

بياض يده بالمخالفة للون جسمه

يقول الحق سبحانه: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾[1] [الأعراف: ١٠٨].

وكلمة «نزع» تدل على أنه إخراج بعنف وبعسر؛ لأن الشيء السهل لا يقال: نزعته، ولكن يقال: خلعته. إنما النزع يدل على مقاومة. وفي ذلك يقول الحق سبحانه: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾[2] [آل عمران: ٢٦].

---

(١) قال ابن عطية: وقوله: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾، معناه من جيبه أو كمه حسب الخلاف في ذلك، وقوله: ﴿فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ﴾ قال مجاهد: كاللبن أو أشد بياضاً، ورُوي أنها كانت تظهر منيرة شفافة كالشمس تأتلق، وكان موسى عليه السلام ذا دَمٍ أحمر إلى السواد، ثم كان يرد يده فترجع إلى لون بدنه.

المحرر الوجيز [٢/٤٣٦]

(٢) قال ابن كثير: يقول تعالى: ﴿قُلِ﴾ يا محمد، معظماً لربك وشاكراً له ومفوضاً إليه ومتوكلاً عليه: ﴿ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ أي: لك الملك كله ﴿تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾ أي: أنت المعطي وأنت المانع، وأنت الذي ما شئت كان وما لم تشأ لم يكن. وفي هذه الآية تنبيه وإرشاد إلى شكر نعمة الله تعالى على رسوله ﷺ وهذه الأمة؛ لأن الله تعالى حوّل النبوة من بني إسرائيل إلى النبي العربي القرشي الأمي المكيّ، خاتم الأنبياء على الإطلاق، ورسول الله إلى جميع الثقلين: الإنس والجن، الذي جمع الله فيه محاسن من كان قبله، وخصه بخصائص لم يُعْطَها نبي من الأنبياء ولا رسول من الرسل، في العلم بالله وشريعته، واطلاعه على الغيوب الماضية والآتية وكشفه عن حقائق الآخرة، ونشر أمته في الآفاق، في مشارق الأرض ومغاربها، وإظهار دينه وشرعه على سائر الأديان والشرائع. فصلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين، ما تعاقب الليل والنهار. ولهذا قال تعالى: ﴿ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ الآية. أي: أنت المتصرف في خلقك، الفعال لما تريد، كما ردَّ تبارك وتعالى على من يتحكم عليه من أمره، حيث قال: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، قال الله ردًّا عليهم: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾. أي: نحن نتصرف في خلقنا كما نريد بلا ممانع ولا مدافع، ولنا الحكمة والحجة في ذلك. وهكذا نعطي النبوة لمن=

ذلك، لأن المُلك من البشر لا بد أن ينزع وأن يؤخذ قسراً. فصاحب الملك متمسك به مدافع عنه؛ ولذلك لا بد أن ينزع منه.

وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾ [الأعراف: ١٠٨]. يدل على أن يده كان لها وضع خاص. وكانت في مكان هو حريص على وجودها فيه.

وفي آية أخرى يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾[١] [النمل: ١٢].

وهكذا أوضحت لنا هذه الآية الصور، ففي قوله تعالى: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾ لم يبين لنا أنه أدخلها ثم نزعها، ولكن في الآية الأخرى بين الإدخال والنزع.

وفي آية ثالثة قال: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾[٢] [طه: ٢٢]. أي إلى جيبك، والجيب[٣] هو مكان دخول الرأس من الثوب، ولكن الجيب الآن هو أي شيء نجعله لما نحب، وقد كان الجيب هو الشيء الذي توضع فيه الأشياء الثمينة، ولا بد أن يكون في الموقع الأمامي من الثوب، حتى يكون الشيء النفيس أمام نظر

= نريد. كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ وقال تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٢١].

عمدة التفسير [٢/ ٢٣٧، ٢٣٨]

(١) قال أبو حيان: ﴿وَأَدْخِلَ﴾: أمر بما يترتب عليه من ظهور المعجز العظيم، لما أظهر له معجزاً في غيره، وهو العصا، أظهر له معجزاً في نفسه، وهو تلألؤ يده كأنها قطعة نور، إذا فعل ما أمر به. وجواب الأمر الظاهر أنه تخرج لأنها خروجها مترتب على إدخالها.
وقيل: في الكلام حذف تقديره: وأدخل يدك في جيبك تدخل، وأخرجها تخرج، فحذف من الأول ما أثبت مقابله في الثاني، ومن الثاني ما أثبت مقابله في الأول.
قال قتادة: ﴿فِى جَيْبِكَ﴾ قميصك، كانت له مدرعة من صوف لا كمين لها.

البحر المحيط [٨/ ٢١٥]

(٢) قال الماوردي: فيه ثلاثة أوجه:
أحدها: إلى عضدك. قاله مجاهد.
الثاني: إلى جيبك.
الثالث: إلى جنبك، فعبر عن الجنب بالجناح لأنه مائل في محل الجناح.

النكت والعيون [٣/ ٤٠٠]

(٣) قال ابن الجوزي: الجيب حيث جِيبَ من القميص، أي: قُطِع. قال ابن جرير إنما أُمر بإدخال يده في جيبه، لأنه كان عليه حينئذ مدرعة من صوف ليس لها كم.

زاد المسير [٦/ ٥٩]

obeikandl.com

الشخص، وأن يكون مكان هذا الجيب تحت الإبط حتى يكون أمامه وتحت يده، وفي نفس الوقت يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ﴾. إذاً... حدث إدخال وإخراج. بينما في الآية الثانية: تنزع في قوله تعالى: ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾. هناك نزع.

إذاً.. فهناك ثلاث حالات: إدخال اليد في الجيب، وضمها إلى الجناح، ونزعها إلى الخارج. وكل آية من الآيات الثلاث جاءت بلقطة، فإذا أخذناها معاً أعطتنا الصورة الكاملة؛ لذلك إن كل من يقول إن قصص القرآن مكرر، نقول له: لا.. إنه يفسر بعضه بعضاً، كل آية تأتينا بلقطة تفسر اللقطة الأخرى حتى تكتمل القصة.

والحق تبارك وتعالى يقول: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾. ما هو الإعجاز في بياض اليد؟ الإعجاز هنا لكي يقع لا بد أن يكون موسى أسمر اللون، وبذلك يكون البياض في يده مخالفاً للون جسمه، ولكن قوله تعالى: ﴿بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾. أي أن بياضها ليس مجرد اختلاف في اللون، ولكنه يلفت أنظار الموجودين.

ولكن بعض الناس قد يقول: إن يد موسى ابيضت بسبب مرض أصابه، كأن يكون مصاباً بداء البرص مثلاً فتبيض يده. حتى هذا الظن نفاه الله سبحانه وتعالى، فقال في آية أخرى: ﴿بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾[1].

فكأن كل لقطة تعطينا استكمالاً لما حدث، وتكون في هذه الحالة ﴿بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ تدل على أن ضوء يد موسى لامع مضيء، يلفت نظر الناس كلهم، لا يلفت نظر واحد أو اثنين من الموجودين؛ بل يلفت نظر الموجودين جميعاً، وهذا لا يمكن أن يحدث إلا إذا كان ليد موسى عليه السلام بريق ولمعان وسطوع، وكما عرفنا فإن هذا البياض من غير سوء.

❁ ❁ ❁

(١) قال ابن عطية: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ أي من غير برص ولا علّة، وإنما هي آية تجيء وتذهب. المحرر الوجيز [٤/ ٢٥٢]

انفلاق البحر وتجمد مائه

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾ [يونس: ٩٠]، ولم يقل أجتاز بنو إسرائيل البحر؛ لأن الاجتياز لم يتم بأسباب بشرية، وإنما تم بقدرة اللَّه سبحانه وتعالى، التي هي فوق الأسباب، فلو كان بنو إسرائيل قد حفروا خندقاً، أو بنوا حائطاً، أو أعدوا بعض السفن ليعبروا بها البحر، لكانوا قد اجتازوا البحر بأسباب البشر، ولكن قوله تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا﴾ تدل على أن العملية تمت بقدرة اللَّه القدير، وهي فوق كل أسباب البشر وقدراتهم.

اللَّه سبحانه وتعالى أمر موسى أن يضرب البحر بعصاه[١]، ومعلوم أن قانون الماء هو السيولة والاستطراق، فلما ضرب موسى البحر بعصاه فانفلق وتجمد الماء، ونحن نعرف أن الماء يملأ الأماكن المنخفضة قبل أن يصل إلى الأماكن العليا، وهذا هو القانون الذي بُني عليه صهاريج الماء، فيرفع الماء في الصهاريج العالية بالمضخات، ثم يُعاد ضخ الماء في مواسير حتى يصل إلى البيوت ومن ثم الأدوار، مبتدئاً بالمنخفضة أولاً ثم الأعلى فالأعلى.

بمجرد أن ضرب موسى عليه السلام بعصاه البحر تحول الماء بأمر اللَّه من السيولة إلى جبلين بينهما وادٍ.. لماذا تمت المعجزة بهذه الكيفية؟ لأنه لو انفلق البحر وأوجد لهم طريقاً يمرون فيه وحوله الماء من الناحيتين، لخاف بنو إسرائيل أن يعبروا، وقالوا: ربما أغرقنا الماء ونحن لم نتم العبور. واللَّه سبحانه وتعالى يريدهم أن يعبروا باطمئنان وبلا تردد، فجعل الماء على الناحيتين يَجْمُد؛ حتى يطمئنوا إلى أن عبورهم سيتم بسلام.

---

(١) قال ابن كثير: فلما تفاقم الأمر وضاق الحال واشتد الأمر، واقترب فرعون وجنوده في جدّهم وحدّهم وحديدهم، وغضبهم وحنقهم، وزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر، عند ذلك أوحى الحليم العظيم القدير، رب العرش الكريم. إلى موسى الكليم ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ﴾ [الشعراء: ٦٣]. فلما ضربه، يقال: إنه قال له: انفلق بإذن اللَّه.

وما إن شاهد فرعون ذلك حاول اللحاق بهم هو ومن معه، يقول تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ﴾(١) [يونس: ٩٠]، وأتبعهم أي سار وراءهم، يريد أن يدركهم بمجرد أن جاوز موسى عليه السلام وقومه البحر وخرجوا إلى الشاطئ الآخر أراد أن يضرب البحر مرة أخرى كي يعود الماء إلى سيرته الأولى التي هي السيولة والاستطراق، فلا يستطيع فرعون وقومه العبور، ولكن الله سبحانه وتعالى كان يريد غير ذلك، شاء سبحانه أن يُنجي ويُهلك بالشيء الواحد، فقال لموسى عليه السلام: ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾(٢) [الدخان: ٢٤].

أي اترك البحر كما هو، حتى ينخدع فرعون وجنده، وينزلوا إلى ذات الممر الذي عبرتم منه، وبمجرد أن يكون أولهم قد اقترب من العبور، وآخرهم قد نزل في الطريق اليبس، يطبق الله تعالى عليهم البحر، فيغرق فرعون ومن معه. وتلك آية عظيمة أن نجّى الله موسى وقومه، وأهلك فرعون وقومه بنفس الشيء.

قوله تبارك وتعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ﴾(٣) [يونس: ٩٠]. في هذه الحالة الاتباع لا يتم بفكر بشري مرتب؛ بل يتم بانفعال الشر؛ لأن فرعون وجنوده حين رأوا موسى وأتباعه قد بعدوا عنهم، كان العقل

---

(١) قال ابن الجوزي: قوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ﴾ قال أبو عبيدة: أتبعهم وتبعهم سواء. وقال ابن قتيبة: أتبعهم: لحقهم.

زاد المسير [٤/ ٥١]

(٢) قال القرطبي: قال ابن عباس: ﴿رَهْوًا﴾ أي طريقاً، وقاله كعب والحسن.
وعن ابن عباس أيضاً: سمتاً. الضحاك والربيع: سهلاً. عكرمة: يبساً لقوله: ﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا﴾ [طه: ٧٧] وقيل: مفترقاً، مجاهد: منفرجاً، وعنه: يابساً وعنه: ساكناً؛ وهو المعروف في اللغة. وقاله قتادة والمهدوي. وقال غيرهما: منفرجاً.
وقال ابن عرفة: وهما يرجعان إلى معنى واحد وإن اختلف لفظهما؛ لأنه إذا سكن جريه انفرج، وكذلك كان البحر يسكن جريه، وانفرج لموسى عليه السلام.
﴿إِنَّهُمْ﴾ أي إن فرعون وقومه ﴿جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ أخبر موسى بذلك ليسكن قلبه.

تفسير القرطبي [١٦/ ١٣٧، ١٣٨]

(٣) قال الشوكاني: قوله: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ﴾ هو من جاوز المكان: إذ خلفه وتخطّاه والباء للتعدية، أي جعلناهم مجاوزين البحر حتى بلغوا الشط، لأن الله سبحانه جعل البحر يبساً فمروا فيه حتى خرجوا منه إلى البر.

فتح القدير [٢/ ٤٨٤]

يقول: لقد خلصنا من موسى وأتباعه وذهبوا بعيداً، وانتهى خطرهم على الملك وزال، ولكن نوازع الشر في نفس فرعون، في أنه يريد أن يقتل موسى وقومه هي التي جعلته يتبعهم. إن فرعون يريد أن يُثبت زعمه أنه رب، وأنه لا يفلت من قبضته عدو، فلا بد أن يقتل موسى وقومه ليكونوا عبرة؛ حتى لا تقوم دعوة إصلاح بعد ذلك.

الشر داخل فرعون، وإحساسه بقوة جيشه وضعف موسى وقومه، هو الذي دفعه إلى محاولة العبور وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿بَغْيًا وَعَدْوًا﴾[1] البغي: هو تجاوز الحد، والعدوان: هو الإصرار على الباطل.

وحينما نقرأ قول الله سبحانه: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ﴾ [يونس: ٩٠]. نعرف أن الله سبحانه وتعالى أعد لفرعون وجيشه هذه النهاية لتكون عبرة لكل طاغية ومدّع بغير حق، ولو أن البغي والعدوان لم يكونا بداخله، لأدرك بمجرد أن رأى معجزة انشقاق البحر، أن إله موسى سينجيه، ولن يتركه يهلك، ولكن غرور فرعون وبغيه وعدوانه، لم يجعله يلتفت إلى هذه المعجزة التي رآها بعينيّ رأسه، لقد كان مشغولاً بربوبيته المدعاة، وجبروته الزائف، فلم تؤثر هذه المعجزة الكبرى فيه ولم يلتفت إلى عظيم صنع العظيم، ولا إلى قدرة القادر فقد ملأ قلبه الكفر، فحقّت عليه كلمة الله بأن جعله لمن بعده آية تدل على عظيم قدرة الله تعالى حيث قال: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ [يونس: ٩٢].

ولذلك يقول الحق جل جلاله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ﴾[2]، والإدراك أن يقصد المُدْرِك أن يلحق بالشيء الذي يريد أن يدركه، ويبذل كل جهده في ذلك، والغرق هو أن يغطي الماء الإنسان فلا يستطيع أن يتنفس، فيدخل إلى جوفه بدلاً

---

(١) ﴿بَغْيًا وَعَدْوًا﴾ أي: ظلماً واعتداءً. وقيل: بغياً في القول وعدواً في الفعل.

البغوي [٦/ ١٤٨]

(٢) قال الشوكاني: أي ناله ووصله وألجمه. وذلك أن موسى خرج ببني إسرائيل على حين غفلة من فرعون، فلما سمع فرعون بذلك لحقهم بجنوده، ففرق الله البحر لموسى وبني إسرائيل، فمشوا فيه حتى خرجوا من الجانب الآخر، وتبعهم فرعون والبحر باقٍ على الحالة التي كان عليها عند مُضيّ موسى ومن معه، فلما تكامل دخول جنود فرعون وكادوا أن يخرجوا من الجانب الآخر انطبق عليهم فغرقوا. كما حكى الله سبحانه ذلك.

فتح القدير [٢/ ٤٨٤]

من الهواء. وفي قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ﴾ كأن الغرق جندي من جنود الله، وله عقل، وقد تلقى الأوامر من الله؛ ليحيط بفرعون وجيشه ويغرقهم.

ماذا قال فرعون عندما أدركه الغرق؟ قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرَٰءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[1] [يونس: ٩٠].

الإيمان إذا أطلق يكون دائماً إيماناً بالله. ولكن فرعون لم يقل آمنت فقط، بل قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرَٰءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠]؛ لأن فرعون كافر ومُدع للربوبية، ولا يتوقع منه أن يعلن إيمانه بالله، وخصوصاً أنه دُعي أكثر من مرة إلى الإيمان، ورأى أكثر من معجزة ولم يؤمن، فلا بد هنا من تأكيد المعنى.

والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ﴾ [يونس: ٩٠][2]. أي: أتقول الآن أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل، وقد كنت تملأ الدنيا كفراً؟!

المردود هنا ليس الإيمان نفسه، ولكن ميلاد الإيمان؛ لأن هناك فرقاً بين إيمان الإجبار وإيمان الاختيار. فرعون وهو يغرق كان في حالة إيمان الإجبار؛ لأنه يواجه الموت، ويرى نهايته، وإيمان الإجبار لا ينفع، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩١].

أي أنك يا فرعون وأنت تواجه الموت تقول: آمنت، بينما كان عندك زمن

---

(١) ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرَٰءِيلَ﴾ أي صدقت: ﴿وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي: المستسلمين لأمر الله المنقادين له الذين يوحدونه وينفون ما سواه.

فتح القدير [٢/ ٤٨٤]

(٢) قال القرطبي:

﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ قيل: هو من قول الله تعالى.

وقيل: هو من قول جبريل. وقيل: ميكائيل، صلوات الله عليهما، أو غيرهما من الملائكة صلوات الله عليهم. وقيل: هو من قول فرعون في نفسه، ولم يكن ثَمّ قول باللسان بل وقع ذلك في قلبه فقال في نفسه ما قال، حيث لم تنفعه الندامة. ونظيره: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾ أثنى عليهم الرب بما في ضميرهم، لا أنهم قالوا ذلك بلفظهم، والكلام الحقيقي كلام القلب.

تفسير القرطبي [٨/ ٣٧٩]

طويل لتعلن إيمانك، بعد أن أراك الله معجزات كثيرة على يد رسوله موسى، ولكنك عصيت وأصررت على الكفر.

ولذلك فإن الإيمان لا يقبل إذا بلغت الروح الحلقوم، وعرف الإنسان أنه سيموت يقيناً؛ لأن هذا إيمان إجبار[١].

والله سبحانه وتعالى يريد إيمان الاختيار من البشر، ولو كان المطلوب إيمان الإجبار لقهر الله سبحانه وتعالى عباده على الإيمان، وما استطاع واحد أن يكفر بالله، لأن كل ما في الكون خاضع لأمر الله سبحانه وتعالى، يستطيع أن يقهرهم على ما يشاء. ولكن الحق جل جلاله يريد من عبده أن يأتيه عن طاعة، ولا يتم إيمان الطاعة إلا إذا كان الإنسان مختاراً أن يؤمن أو لا يؤمن، فالذي يأتي عن طريق الاختيار حباً في الله سبحانه وتعالى، وطاعة لأمره تكون له منزلة كبيرة عند الله.

إذن.. فالمردود ليس القول، ولكنه زمن القول، يقول بعض الناس: إن الله رد إيمان فرعون ولم يقبله مع أنه قالها ثلاث مرات، نقول إن إيمان الإجبار لا يقبل ممن له اختيار.

وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾[٢] [يونس: ٩٢].

---

(١) أخرج الإمام أحمد عن بعض أصحاب النبي ﷺ يقول: «من تاب إلى الله عزّ وجلّ قبل أن يموت بيوم قبل الله منه. قال: فحدثه رجلاً من أصحاب النبي ﷺ آخر بهذا الحديث فقال: أنت سمعت هذا منه. قال: قلت نعم. قال: فأشهد أني سمعت رسول الله يقول: «من تاب إلى الله قبل أن يموت بنصف يوم قبل الله منه». قال: فحدثنيها رجل آخر من أصحاب النبي ﷺ فقال: أنت سمعت هذا. قال: نعم. قال: فأشهد أني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من تاب إلى الله قبل أن يموت بضحوة قبل الله منه». قال: فحدثه رجلاً آخر من أصحاب رسول الله ﷺ فقال: أنت سمعت هذا منه. قال: نعم. قال: فأشهد أني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من تاب قبل أن يغرغر نفسه قبل الله منه». المسند [٥/ ٣٦٢] وذكره الهيثمي في الزوائد [١٠/ ٢٠٠] عن عبد الرحمن البيلماني، وقال: رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح غير عبد الرحمن، وهو ثقة.

(٢) ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ معنى ننجيك: نلقيك على نجوة من الأرض، والنجوة: المكان المرتفع، وقوله تعالى: ﴿بِبَدَنِكَ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: يعني بجسدك من غير روح؛ قاله مجاهد. =

ومن المعلوم أن الإنسان مكون من بدن وروح، البدن أو الجسد هو الهيكل المادي، والروح هي التي تعطي هذا الهيكل الحياة والحركة، إذن فقوله تعالى: ﴿نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾. أي بجسدك المجرد عن الروح، ولذلك أمر الله سبحانه البحر أن يلقي بجسد فرعون قبل أن يصبح جيفة، حتى يراه الذين عبدوه جسداً بلا روح؛ ليعرفوا أنهم قد عبدوا إلهاً مزعوماً غير قادر على أن يعطي الحياة لنفسه، فكيف يعطي الآخرين الحياة؟! ولو أن فرعون غاص إلى أعماق البحر بعد غرقه ربما قال أتباعه: إنه قد اختفى وسيعود[1]، ولكن ظهوره جسداً بلا روح يجعلهم يرون

= **الثاني**: بدرعك، وكان له درع من حديد يعرف بها، قاله أبو صخر، وكان من تخلف من قوم فرعون ينكر غرقه.

النكت والعيون [٢/ ٤٤٩]

قال ابن الجوزي: وفي قوله: ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ ثلاثة أقوال:

أحدها: لتكون لمن بعدك في النكال آية؛ لئلا يقولوا مثل مقالتك، فإنك لو كنت إلهاً ما غرقت؛ قاله أبو صالح عن ابن عباس. قال أبو عبيدة: ﴿خَلْفَكَ﴾ بمعنى بعدك، والآية: العلامة.

والثاني: لتكون لبني إسرائيل آية؛ قاله السدي.

والثالث: لمن تخلف من قومه؛ لأنهم أنكروا غرقه.. فخرج في معنى الآية قولان:

أحدهما: عبرة للناس.

والثاني: علامة تدل على غرقه. وقال الزجاج: الآية أنه كان يَدّعي أنه رب فبان أمره، وأخرج من بين أصحابه لما غرقوا.

زاد المسير [٤/ ٥٢، ٥٣]

(١) قال ابن الجوزي:

وفي سبب إخراجه من البحر بعد غرقه ثلاثة أقوال:

أحدها: أن موسى وأصحابه لما خرجوا، قال من بقي من المدائن من قوم فرعون: ما غرق فرعون؛ ولكنه هو وأصحابه يتصيدون في جزائر البحر، فأوحى الله إلى البحر أن إلفظ فرعون عرياناً، فكانت نجاةً عبرةً، وأوحى الله تعالى إلى البحر: أن إلفظ ما فيك، فلفظهم البحر بالساحل، ولم يكن يلفظ غريقاً إلى يوم القيامة؛ رواه الضحاك عن ابن عباس.

والثاني: أن أصحاب موسى قالوا: إنا نخاف أن يكون فرعون ما غرق، ولا نؤمن بهلاكه، فدعا موسى ربه، فأخرجه حتى أيقنوا بهلاكه؛ رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس، وإلى نحوه ذهب قيس بن عباد، وعبد الله بن شداد، والسدي ومقاتل. وقال السدي: لما قال بنو إسرائيل: لم يغرق فرعون، دعا موسى، فخرج فرعون في ستمائة=

obeikandl.com

نهايته، علّها تكون عبرة لهم حتى لا يعبدوا بشراً بعد ذلك. ولذلك يُقال: إن سبب حفظ أبدان الفراعنة أن اللّه سبحانه وتعالى، أعطاهم أسرار تحنيط الجسد البشري لكي تكون أجسادهم عبرة لمن يجيء بعدهم، ويروا أولئك الذين ادعوا الربوبية وهم أجساد لا حركة فيها ولا قدرة.

= ألف وعشرين ألفاً عليهم الحديد، فأخذته بنو إسرائيل يمثلون به. وذكر غيره أنه إنما أُخرج من البحر وحده دون أصحابه. وقال ابن جريج: كذب بعض بني إسرائيل بغرقه، فرمى به البحر على ساحل البحر، حتى رآه بنو إسرائيل قصيراً أحمر كأنه ثور.

وقال أبو سليمان: عرفه بنو إسرائيل بدرع كان له من لؤلؤ لم يكن لأحد مثلها. فأما وجهه فقد غيره سُخْطُ اللّه تعالى.

والثالث: أنه كان يدعي أنه ربٌ، وكان يعبده قوم، فبيَّن اللّه تعالى أمره، فأغرقه وأصحابه، ثم أخرجه من بينهم، قاله الزجاج.

زاد المسير [٥١، ٥٢/ ٤]

obeikandl.com

الغمام
من معجزات موسى عليه السلام

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ﴾[1] [البقرة: ٥٧]. ففي خلال فترة الأربعين عاماً التي تاه فيها بنو إسرائيل في الصحراء كانت الشمس محرقة؛ لأنه لا يوجد ظل، فتأتي رحمة اللّه بالغمام، أي الظل. وبما أنهم متفرقون تأتي كل غمامة على قدر السبط، حتى لا يكون هناك البعض في ظل الغمامة والبعض تحت أشعة الشمس المحرقة. تماماً كما نصنع مثلاً عشرين خيمة ونوزع عليها الموجودين، فيكون لكل واحد منهم مكان تحت الخيمة.

❁ ❁ ❁

(١) قال الماوردي: قوله عزّ وجلّ: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ﴾. والغمام: هو ما غَمَّ السماء، فغطاها من سحاب وقتام، وكل مغطٍّ فهو غمام، ومنه: غُمَّ الهلال، أي غطاه الغيم.
وفي الغمام الذي ظلّله اللّه عليهم تأويلان:
أحدهما: أنه السحابة؛ وهو قول ابن عباس.
والثاني: أنه الذي أتى الملائكة في يوم بدر، مثل قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ وهذا قول مجاهد.
النكت والعيون [١/ ١٢٤]

obeikandl.com